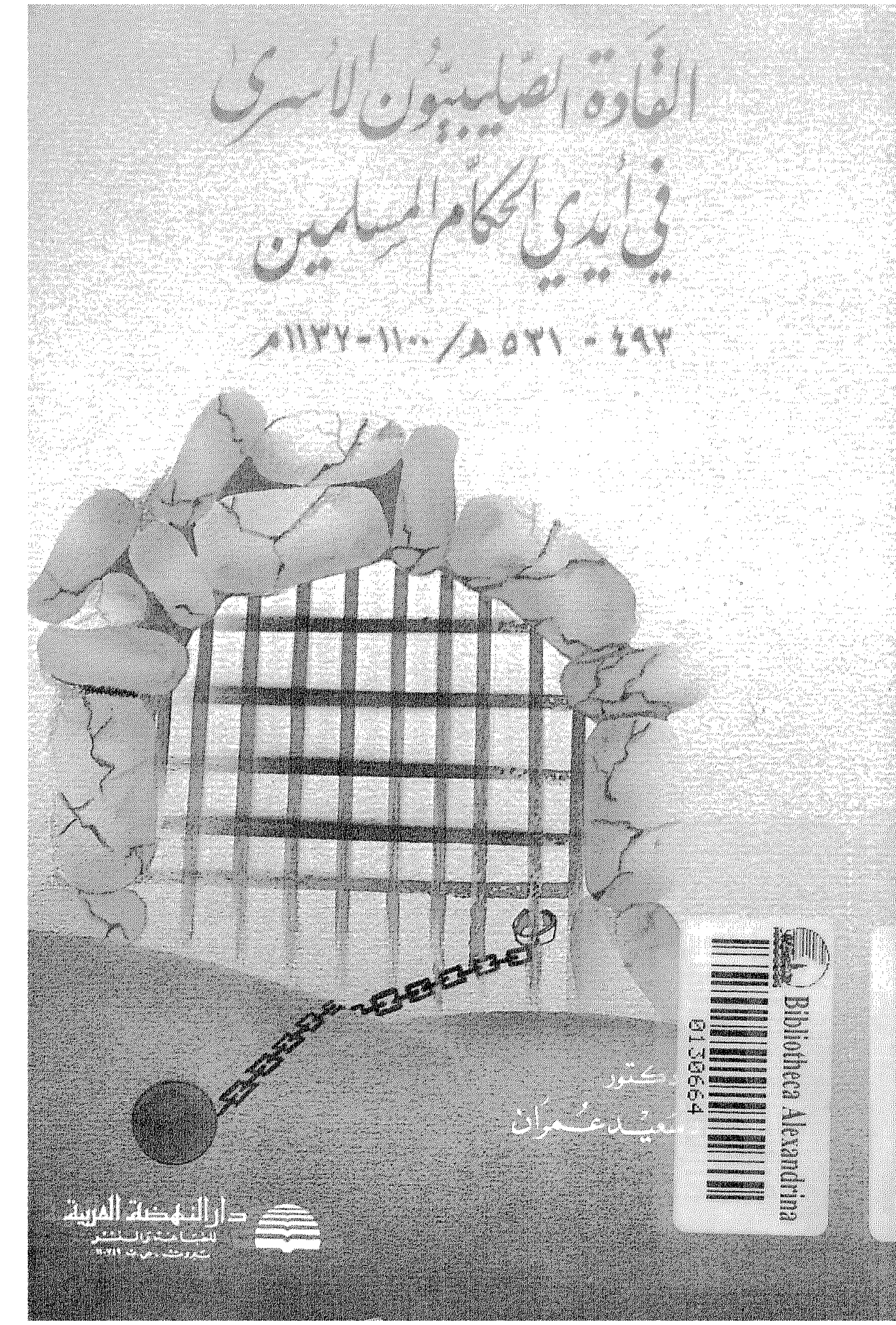

القادة الصليبيون أسرى
في أيدي الحكام المسلمين
٤٩٣ - ٥٣١ هـ/ ١١٠٠ - ١١٣٧م
كتور
سعيد عمران
دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
Bibliotheca Alexandrina
01306664

القادة الصليبيون الأسرى في أيدي الحكام المسلمين

٤٩٣ - ٥٢١ هـ / ١١٠٠ - ١١٣٢ م

القادة الصليبيون الأسرى في أيدي الحكام المسلمين

٤٩٣ - ٥٣١ هـ/ ١١٠٠-١١٣٧م

دكتور
محمود سعيد عمران
أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت . ص.ب ١١٠٧٤٩

١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م



دار النهضة العربية
للطباعة والنشر

* الإدارة : بيروت، شارع مدحت باشا ـ
بناية كريدية تلفون: ٣١٢٢١٣ ـ
برقياً: دانهضة ـ
ص.ب.: ٧٤٩ ـ ١١ ـ
تلكس: NAHDA 40290 LE

* التوزيع : شارع البستاني ـ بناية اسكندراني
رقم ٣ غربي جامعة بيروت
العربية ـ تلفون: ٣٠٣٨١٦ ـ
٣١٦٢٠٢.

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

يحاول الباحث من خلال هذه الدراسة إلقاء الضوء على جانب من السلوك الذي ساد العلاقات بين المسلمين والصليبيين، وإذا كنا جميعاً نعلم أنَّ الدراسات الحضارية صعبة ومعقدة لعدم إمكان حصرها في مدة زمنية قصيرة، وأنَّ من يتولى دراستها عليه أن يطلع على عدد كبير من المصادر التاريخية حتى يجد جانباً مما يبغيه، فما بال القارىء الكريم باقتفاء أثر سلوك المسلمين والصليبيين خلال فترة الحروب الصليبية.

إن جمع مثل هذا الموضوع في بحث واحد يعتبر ظلماً له، لذلك آثر الباحث أن يتناول هذا الموضوع في سلسلة أبحاث تصدر تباعاً يتناول كل بحث فيها فترة زمنية محدودة حتى يمكن التعمق في أحداثها والوصول إلى أفضل النتائج.

وقد حدد الباحث للبحث الأول الفترة الزمنية التي تبدأ بالحروب الصليبية وحتى عام ٥١٣ هـ/ ١١١٩ م، وسوف تنقسم هذه الفترة إلى ثلاث مباحث. أما البحث الثاني فيشمل الفترة الزمنية التالية للفترة الأولى حتى عام ٥٣١ هـ/١١٣٧م وهي تضم مبحثين. وسوف يتابع

الباحث إستكمال هذا الموضوع حتى نهاية الحروب الصليبية على هذا النهج بإذن الله.

ويلاحظ أنَّ البحثين يشملان فترة زمنية تكاد تكون متقاربة فكل منها حوالي عشرين عاماً. وقد دار خلال كل فترة معارك طاحنة بين المسلمين والصليبيين وتغيرت الخريطة السياسية في بلاد الشام كثيراً. وسقط خلال هذه الفترة الكثير من القتلى والجرحى والأسرى، ويتركز البحث على القادة الصليبيين الذين وقعوا أسرى في أيدي المسلمين خلال كل فترة.

ولما كانت معظم أحداث الأسر قد وقعت خلال معارك عسكرية فإنَّ منهج الباحث ينصب على أسباب هذه المعارك، ومكان وزمان كل معركة، والشخصية التي وقعت في الأسر، وأثر ذلك على الجانبين الإسلامي والصليبي، ويلي ذلك معاملة المسلمين للأسرى ومدة بقائهم في الأسر. وأخيراً شروط الإفراج عن هؤلاء القادة وإلى أي مدى تمَّ تنفيذ هذه الشروط وما يترتب على ذلك من نتائج.

والله ولي التوفيق

محمود سعيد عمران

الإسكندرية ٥ اكتوبر ١٩٨٥

البحث الأول

القادة الصليبيون الأسرى في أيدي الحكام المسلمين

٤٩٣ - ٥١٣ هـ / ١١٠٠ - ١١١٩م

١ ـ المبحث الأول: أسر بوهمند أمير أنطاكية.

٢ ـ المبحث الثاني: أسر بلدوين دي بورج أمير الرها وجوسلين صاحب تل باشر.

٣ ـ المبحث الثالث أسر روبرت الأبرص صاحب ذردنا ورينو مازوار كندسطبل أنطاكية.

المبحث الأوّل

أسر بوهمند أمير أنطاكية

يتعلّق المبحث الأول في هذه الدراسة بأسر بوهمند Bohemond أمير أنطاكية ١٠٩٨ ـ ١١٠٤ م / ٤٩١ ـ ٤٩٨ هـ، وترجع بداية هذه الأحداث إلى محاولات الجانب الإسلامي والصليبي السيطرة على مدينة ملطية، والمعروف أنَّ هذه المدينة كانت تحت حكم زعيم أرميني يدعى جبريل منذ عام ١٠٩٤ م / ٤٩١ هـ، وهو مسيحي على المذهب الأرثوذكسي. لذلك حاول التقرب إلى الدولة البيزنطية، ولكنه وجد سلاجقة الروم قد أحاطوا به من كل جانب، لذلك دخل في تبعية السلطان السلجوقي والخليفة العباسي في بغداد، وظلَّ جبريل يتمتع باستقلال مزعزع وسط عالم العناصر السلجوقية[1].

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية ـ القاهرة ١٩٦٣ ـ جـ ١ ـ ص ١٧٨.

لم يتوقف تهديد سلاجقة الروم لمدينة ملطيـة، ففي عام ١٠٩٦ م / ٤٨٩ هـ حاصر قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم (١٠٩٢ ـ ١١٠٧ م / ٤٨٥ ـ ٥٠١ هـ) المدينة ولكن جبريل دافع عنها ورفض تسليمها للسلطان. وعندما قامت الحملة الصليبية الأولى وتعـرضت آسيا الصغـرى للاجتيـاح الصليبي، انشغـل سلاجقة الروم بالدفاع عن ممتلكـاتهم، ولكن الأمير غـازي بن دانشمند أمير سيـواس (٤٧٧ ـ ٤٩٥ هـ / ١٠٨٤ ـ ١١٠٢ م) انتهز الفرصة وحاول الاستيلاء على ملطية. وأمام تهديد أمـير سيواس الذي استمرَّ حوالي ثلاث سنوات على التوالي، وما أحدثه من تخريب حول المدينة، وإحساس جبريل بأنَّ القوى التي يعتمد عليها وهي الإمبراطورية البيزنطية والخلافة العباسيـة والسلطنة السلجوقية في بغداد لم تعد في وضع يمكنها من حمايته، لجأ جبريل إلى الصليبيين. وقد ساعد على هذا التقارب ما كان يخطط له بوهمند من السيطرة على المواقع الشمالية لإمارته لـدفع الخـطر البيزنطي والمواقع الشرقية لدفع الخطر الإسلامي بكل عناصره.

تطلع جبريل إلى بوهمند لمساندته ولم يتـطلع إلى بلدوين البولوني Baldwin of Boulogne أمير الرها (١٠٩٨ ـ ١١٠٠م) رغم قربه إليه خشية ضياع نفوذه وأن يكـون مصيره كمصـير ثوروس Thoros حاكم الرها قبيل الحملة الصليبية الأولى. والمهم أنَّ جبريل أرسل إلى بوهمند إثنين من رجال الدين هما جريجوري Gregory أسقف مـدينة مـرعش، وسيبريـان Cyprian أسقف أنطاكية ـ الذي كان على ما يبدو في زيارة لمدينة ملطية ـ يعرضان

على بوهمند استلام المدينة نظير الدفاع عنها[١]. وقد عبَّر ابن الأثير عن ذلك بقوله: «كان صاحب ملطية قد كاتبه واستقدمه إليه»[٢].

وصل الأسقفان إلى أنطاكية عندما كان بوهمند يحاصر حصن أفاميه في شهر رجب ٤٩٣ هـ / مايو ١١٠٠ م حيث أقام عليه عدَّة أيام وأتلف زرعه، وفي الوقت نفسه كان الأمير غازي قد وصل إلى ملطية في خلق عظيم من رجاله ومن عسكر السلطان قلج أرسلان، وعندما علم بوهمند، بهذه الأخبار رفع الحصار عن أفاميه وعاد إلى أنطاكية ليعد قواته للتوجه إلى ملطية لمواجهة الأمير غازي وقواته[٣].

والواضح أنَّ بوهمند ظلَّ حوالي شهرين في أنطاكية حتى توجه إلى ملطية في شهر يوليو / رمضان من العام نفسه[٤]، ولا شكَّ أنَّ بوهمند قضى هذه المدة في ترتيب إمارته وإعداد قواته[٥]، وتشير أيضاً إلى أنَّ بوهمند كان يعد العدَّة لقضاء بعض الوقت بعيداً عن إمارته.

وتشير النصوص إلى تقدم بوهمند من أنطاكية إلى ملطية على رأس قواته التي قدرتها بعض المصادر اللاتينية بثلاثمائة من

---

(١) Matthew D'Edessa, chronique, Paris, 1858, p. 231.

(٢) ابن الأثير: الكامل - بيروت - ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م - جـ ١ - ص ٣٠٠.

(٣) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق - بيروت - ١٩٠٨ - ص ١٣٨.

(٤) Fulcher Of Chartres, A History Of The Expedition To Jerusalem, Knoxville, 1969, p. 135.

(٥) ابن القلانسي: المصدر السابق - ص ١٣٨.

الفرسان،[1] واكتفى آخرون بذكر أنها كانت قليلة العدد،[2] كما أشارت بعض المصادر إلى أنّ القوات التي وصلت إلى ملطية كانت تشتمل على عناصر أرمينية[3]، ويبدو أنّ هذه القوات انضمت إليه من نواحي متفرقة وهو في طريقه إلى ملطية، وقد قدّر ابن الأثير هذه القوات بخمسة آلاف جندي[4]. أمّا قوات الأمير غازي فقد ذكرت المصادر اللاتينية أنها كانت كثيرة، ولعلّ ذلك مرجعه إلى أنّ الأمير غازي توجه إلى ملطية في خلق عظيم من الأتراك ومن عسكر قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم[5].

كان اللقاء عند التلال القريبة من مدينة ملطية[6]، ويبدو أنّ بوهمند قد استخف بقوات الأمير غازي، أو أنّه كان لا يعلم بوجودها في هذه السهول، لذلك سار دون مبالاة[7]. وذلك عن العكس من الأمير غازي الذي كان يعلم بقدوم بوهمند وقواته لذلك نصب الكمائن في طريقها[8]، وتمكن من اصطيادها وانقضّ عليها حتى شلّ حركتها. وقد دفع هذا الموقف المؤرخ متّى الرهاوي إلى وصف القوات الصليبية والأرمينية بأنّها تخلّت عن أسلحتها كما

(١) Albert of Aix, Liber Christianae Expeditionis, in R.H.C. Occ. IV, p. 524.

(٢) Fulcher of Charter, op. cit, p. 135.

(٣) Matthew D'Edessa, op. cit, p. 231.

(٤) ابن الأثير: المصدر السابق ـ جـ ١٠ ـ ص ٣٠٠.

(٥) ابن القلانسي: المصدر السابق ـ ص ١٣٨.

(٦) Albert of Aix, op. cit, p. 524.

(٧) Fulcher of Charter, op. cit, p. 135.

(٨) Michael Le Syrian, Chronique, ed. Chabot, 1899 - 1910, III, p. 188.

تتخلى النساء عن زينتها في المواكب الجنائزية[1]. وبعد معركة يبدو أنّها كانت رهيبة قصيرة الأمد قتل جمع كبير من قوات بوهمند، وكان من بين القتلى أسقفاً أنطاكية ومرعش. أما بوهمند ونفر من أصحابه من بينهم ابن عمه ريتشارد أف سالرنو Richard of Salerno فقد وقعوا في أسر الأمير غازي[2].

وقعت أحداث هذه المعركة في شهر يوليو[3]، أو أغسطس ١١٠٠ م/ رمضان - شوال ٤٩٣ هـ[4]، وانتهت كما توضح بأسر بوهمند أمير أنطاكية وهو الأمير الذي كان يعتبره البعض ملك الفرنجة الحقيقي، وأنّ إسمه كان يثير الرعب في جميع النواحي الإسلامية حتى خراسان[5].

لا شك أنّ وقوع بوهمند في الأسر كان له نتائج كبيرة على المسلمين والصليبيين وكذلك البيزنطيين، ومن النتائج ما حدث بعد الأسر مباشرة، ومنها ما كان في فترات لاحقة للأسر. ومن النتائج الخاصة بالمسلمين، فما من شك أنّ الأمير غازي قد إبتهج بهذا النصر ووقوع بوهمند في أسره، وهو الذي أتى لنجدة المدينة وقد أصبحت بعد أسره بلا حامي يحميها، لذلك ألقى الحصار على

---

(١) Matthew D'Edessa, op. cit, pp. 230 - 1.

(٢) Matthew D'Edessa, op. cit, p. 231, Albert of Aix, op. cit, p. 524.
راجع أيضاً ابن القلانسي: المصدر السابق - ص ١٣٨.

(٣) Fulcher of Charter, op. cit, p. 135.

(٤) Albert of Aix, op. cit, p. 425.

(٥) Matthew D'Edessa, op. cit, p. 231.

المدينة بما لديه من القوات، وقد أظهر للمدافعين عن المدينة رؤوس القتلى[1]، وكان يأمل في الاستيلاء عليها. ولكن بعض من هربوا من المعركة نجحوا في الوصول إلى مدينة الرها لطلب النجدة، وقد إستجاب بلدوين أمير الرها على الفور وأسرع بجيشه لنجدة المدينة بعد أن موّل جيشه بالضروريات، ولما علم أمير غازي بهذه التحركات رفع الحصار عن المدينة وعاد إلى بلاده ومعه أسيره بوهمند مقيداً بالسلاسل وحبسه في قلعة مدينة ينكسار[2].

كما أنَّ أخبار هزيمة جيش بوهمند وأسره شجعت المسلمين في النواحي الأخرى على مهاجمة الممتلكات الصليبية، فقد سار جناح الدولة أمير حمص إلى حصن أسفونا القريب من معرة النعمان وهاجمه وقتل جميع من فيه. وترتب على ذلك هروب من كان من الفرنج في أعمال حلب وتركوا حاجياتهم، لذلك خرج رضوان صاحب حلب وأخذ الغلال التي جمعوها[3].

أما فيما يتعلق بالنتائج الخاصة بالصليبيين فقد عمَّ الحزن واليأس كافة الأرجاء الصليبية عندما علموا بهذه الأحداث التي وصفوها بالكارثة، أما بوهمند نفسه فقد حاول أن يتدارك الموقف فقطع خصلة من شعره وأرسلها إلى بلدوين أمير الرها يطلب

---

(١) Albert of Aix, op. cit, p. 524.

(٢) Matthew D'Edessa, op. cit, p. 231. William of Tyre, History of Deeds Done Beyond The Sea. New - York 1943, Vol I, pp. 411 - 2, Matthew D'Edessa, op. cit, p. 231, Albert of Aix, op. cit, p. 524.

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب ـ دمشق ـ ١٣٧٣ هـ/ ١٩٥٤ م ـ جـ ٢ ص ١٤٥.

النجدة، وعندما وصلت هذه الأخبار إلى بلدوين مع بعض الذين استطاعوا الفرار من المعركة، جمع جيشاً من الصليبيين الموجودين في الرها وأنطاكية[1]. وبعد أن جهّز هذه القوات بالمؤن الضرورية اتّجه شمالاً إلى ملطية التي تبعد عن الرها حوالي مائة وسبعين كيلومتر، وهي مسافة تحتاج إلى مسيرة ثلاثة أيام في تلك الفترة، ولكن بلدوين قطعها في أقل من ذلك ووصل ملطية، وهناك علم برحيل الأمير غازي عن المدينة، وظلّ بلدوين يتعقّب الأمير غازي عدّة أيام من ٢٧ - ٣٠ أغسطس ١١٠٠ م / ١٩ - ٢٢ شوال ٤٩٣ هـ ولكن بلدوين لم يدركه، وبعد ما خاب أمله في اللحاق عاد إلى ملطية[2]. ولعلّ بلدوين خشى التوغل داخل الأراضي الإسلامية فيحل به ما حل بالأمير بوهمند.

وهكذا فشل بلدوين في مهمته وعاد إلى ملطية، فاستقبله حاكمها جبريل بالترحاب نظراً لما أبداه من استجابة لنجدة المدينة، ولا شك أنّ أهل ملطية استقبلوا بلدوين بالشعور نفسه لأنّه أزاح عنهم الخطر الذي كان يهدد المدينة. وقد بادر جبريل بوضع المدينة تحت حماية بلدوين على الشروط نفسها التي كان قد اتفق مع بوهمند عليها، وهي أن يتولى بلدوين أمر الدفاع عن ملطية[3]. وبعد أن رتّب بلدوين أمر الدفاع عن المدينة ترك خمسين من رجاله

---

(١) Fulcher of Charter, op. cit, p. 135.

(٢) William of Tyre, op. cit, I, p. 412.

(٣) Ibid, loc. cit..

للمساعدة في الدفاع عن المدينة[1]، وعاد إلى الرها.

ومن النتائج المتعلقة بالجانب الصليبي أيضاً ما يقال أنَّ جودفري أف بوابون Godfrey Of Bouillon ملك مملكة بيت المقدس (١٠٩٩ - ١١٠٠ م / ٤٩٢ - ٤٩٣ هـ) قام بدوره عندما علم بأسر بوهمند وأغار على البلاد الإسلامية عبر نهر الأردن وهاجم أحد القبائل العربية وعاد محملاً بالأسرى والأسلاب، ومن أسراه كان أحد شيوخ القبائل[2]. ولا تمدنا المصادر التي تحت أيدينا بأخبار هذا الشيخ بعد ذلك.

هذا ما كان من موقف تعاطفي من بلدوين البولوني، وجودفري أف بوابون. أمَّا ريموند الصنجيلي Rymond Of Saint - Giles عدو بوهمند، فلم توضح لنا النصوص التي تحت أيدينا موقفه من أسر بوهمند. وإنَّما يفهم منها أنَّه رحل بعد هذه الأحداث بقليل إلى القسطنطينية[3] ولعلَّه لجأ إلى الإمبراطور البيزنطي الكسيوس الأول Alexius I (١٠٨١ م / ١١٨ م / ٤٧٣ - ٥١٢هـ) ليجد فيه سنداً ضد الأمراء الصليبيين الذين خيبوا أمله في تكوين إمارة صليبية خاصة به بعد ما تمَّ اختيار بلدوين البولوني أمير الرها ليخلف أخاه جودفري على عرش مملكة بيت المقدس.

---

(١) Albert of Aix, op. cit, p. 526.

(٢) William of Tyre, op. cit, I, p. 412.

(٣) Anna Comnena, The Alexiad, Penguin 1969, p. 355, Fulcher of Charter, op. cit, p. 165.

وفي خضم هذه الأحداث تغيرت القيادات السياسية في الإمارات الصليبية الثلاث، فقد توفي جودفري وخلفه أخوه بلدوين البولوني على عرش مملكة بيت المقدس (١١٠٠ - ١١٨ م/٤٩٣ - ٥١٢ هـ)، وبذلك خلت إمارة الرها من حاكمها وتولى أمرها بلدوين أف بورج Baldwin of Le Bourg (١١٠٠ - ١١١٨م/ ٤٩٣ - ٥١٢ هـ). أمّا إمارة أنطاكية فقد تمّ تعيين تانكرد Tancred ابن أخت بوهمند وصياً على الإمارة لحين عودة الأخير من الأسر. ولما كان تانكرد المرشح لهذا المنصب يحكم حيفا وطبرية كإقطاع من ملك مملكة بيت المقدس الذي كان على خلاف معه، لذلك رحَّب تانكرد بالوفد الذي أرسله إليه أهل أنطاكية يطلبون منه الإسراع بالحضور ليتولى أمر الوصاية على الإمارة حتى عودة الأمير بوهمند. ولعلَّ هذا الاختبار مرجعه إلى أنَّ أهل أنطاكية كانوا يرون أنَّ تانكرد رجلاً حكيماً وجندياً ماهراً وليس بينهم من يضارعه، فضلاً عن كونه ابن أخت أميرهم بوهمند، ورحل تانكرد إلى أنطاكية بعد ما سلم إقطاعه إلى الملك بلدوين، الذي إرتاح لرحيله، ومعه خمسمائة من المشاة ووصل أنطاكية في مارس ١١٠١ م / جمادي الأولى ٤٩٤ هـ[١].

لم تتأثر أنطاكية كثيراً بأسر بوهمند لأنَّ تانكرد سار على السياسة نفسها التي سار عليها بوهمند من قبل خاصة مع الإمبراطورية البيزنطية، وقد إستغل تانكرد مشاغل الإمبراطور

---

(١) Albert of Aix, op. cit, p. 538, Fulcher of Charter op. cit, p.p. 150 - 1.

الكسيوس وأرسل قواته في صيف عـام ١١٠١ م إلى القواعـد البيزنطية في قيليقية وهي المصيصة وأدنه وطرطوس وتمكن من الاستيلاء عليها[١]. ولم تطالعنا النصوص التي بين أيدينا عن عمل إيجابي من قبل الإمبراطورية البيزنطية، ولعلَّ هذا ما شجع تانكرد على مهاجمة اللاذقية في ربيع عام ١١٠٢م/ أواسط عام ٤٩٤ هـ، ولكن حامية المدينة القوية ظلّت تدافع عنها ببسالة، كما ساند الأسطول البيزنطي المدينة مستغلاً قواعده القريبة في قبرص، ولكن تانكرد نجح في نهاية الأمر في الاستيلاء على المدينة في مطلع عام ١١٠٣ م / ربيع ثان ٤٩٦ هـ[٢].

وفيما يتعلّق بمدينة ملطية التي أسر بوهمند أثناء محاولته الدفاع عنها فقد زوّج حاكمها جبريل ابنته مورفيا Morfia إلى بلدوين أف بورج حاكم الرها[٣]، وما من شك أنّ تلك الزيجة قد قوّت الروابط بين الأرمن وبلدوين الذين عمل على حسن إدارة المدينة وتنظيمها[٤]. ويبدو أنّ بلدوين إنشغل كثيراً بإمارته لأنّ النصوص التي تحت أيدينا لا تطالعنا عن أي عمل قام به بلدوين من أجل تحرير بوهمند حتى هذه المرحلة.

وجاءت المحاولة الأولى لتخليص بوهمند من الأسر عن طريق

---

(١) Radulph of Caen, Gesta Tancredi, in R.H.C. Occ III, p. 706.

(٢) Anna Comnena, op. cit, p. 335, Radulph of Gaen, op. cit., III p. 708 - 9.

(٣) Fulcher of Charter, op. cit, p. 135 - 6, Michael Le Syrian op. cit, III, p. 188.

(٤) William of Tyre, op. cit., I, p. 450.

الحملة اللمباردية التي وصلت إلى القسطنطينية مع مطلع عام ١١٠١ م، ولمَّا علمت الحملة بما حلَّ بالأمير بوهمند عقدت العزم على التوجه لممتلكات الأمير غازي لمحاولة تخليص بوهمند من الأسر. وتشير المؤرخة آنّا كومنينا Anna Comnena أنَّ الإمبراطور الكسيوس لم يكن راضياً عن قيام الحملة بمثل هذه المغامرة وأنّه نصح القادة الصليبيين عدَّة مرات باتخاذ الطريق الساحلي للوصول إلى الشام، ولكنهم أصروا على محاولة تخليص بوهمند من الأسر، أو على الأقل إلحاق الضرر بممتلكات الأمير غازي. ولما فشلت محاولاته في إقناع قادة الحملة بالتوجه إلى الشام، لجأ إلى ريموند كونت تولوز (ريموند الصنجيلي) الذي كان بالقسطنطينية في هذه المرحلة لمحاولة قيادة الحملة وتوجيهها إلى الشام، ولكن قادة الحملة أصروا على رأيهم، ولم يجد ريموند بداً من مجاراتهم. وأخيراً اتَّجهت الحملة إلى أنقرة ونجحت في الاستيلاء عليها في الثالث والعشرين من يونيه ١١٠١ م/ الثالث والعشرين من شعبان ٤٩٤ هـ. ثمَّ اتَّجهت الحملة شمالاً وعبرت نهر الهاليس، وفي هذا الموضع إنقضت عليها القوات التركية حيث دارت معركة مرسيفان Mersivan في أغسطس ١١٠١ م / ذو القعدة ٤٩٤ هـ التي قضى فيها على ثلاثة أرباع الحملة، ولاذ الباقون بالفرار[1]. وعلى ذلك يمكن القول أنَّ الحملة فشلت في مهمتها، وأنَّ الإمبراطور الكسيوس لم يكن راغباً في قيام الحملة بتخليص بوهمند، ولعلَّ

(١) Anna Comnena, op. cit., pp. 356 - 7.
راجع أيضاً: ابن الأثير: المصدر السابق - جـ ١٠ - ص ٣٠٠.

ذلك يدفعنا إلى القول أنّ الإمبراطور الكسيوس كان يخطط لعمل آخر.

ولم تمدنا المؤرخة آنّا كومنينا بشيء مما فعله الكسيوس حيال بوهمند، وإنما قدم لنا المؤرخ البرت أف أكس Albert of Aix الأسباب والوسيلة التي اتبعها الإمبراطور الكسيوس، وذكر أنّ ما قام به تانكرد من السيطرة على أدنه وطرسوس والمصيصه ثمّ اللاذقية أثناء أسر بوهمند كان دافعاً للإمبراطور للحصول على بوهمند، وأنّه ساوم الأمير غازي على هذا الغرض، وقدم مبلغ مائتين وستين ألف بيزنط مقابل تسليم بوهمند[1]. ولما كان الأمير غازي من أتباع السلطان السلجوقي قلج أرسلان فقد طالب الأخير بنصف الفدية، ولم يوافق الأمير غازي على ذلك، وقد أدّى ذلك إلى خلاف ومنازعة بين الإثنين[2].

وفي هذه المرحلة تقدم بوهمند وهو الأمير الماكر إلى الأمير غازي يعرض عليه إطلاق سراحه مقابل شروط معقولة على حد تعبير المؤرخ ألبرت أف أكس، وتتضمن هذه الشروط أن يدفع بوهمند مبلغ مائة ألف بيزنط وأن يتحالف مع الأمير غازي ضدّ السلطان قلج أرسلان والإمبراطور البيزنطي الكسيوس[3]، ويضيف ابن الأثير على ذلك أنّ الأمير غازي شرط عليه إطلاق

---

(١) Albert of Aix, op. cit, p. 610.

(٢) ابن القلانسي: المصدر السابق ـ ص ١٤٣.

(٣) Albert of Aix, op. cit, p. 612, Michael Le Syrian, op. cit., III, p. 189.

سراح ابنة ياغي سيان الذي كان صاحب أنطاكية وكانت أسيرة عند بوهمند[1].

وخلال المفاوضات حول هذه الشروط ووضعها في صيغتها النهائية داهم الأمير غازي مدينة ملطية ونجح في الاستيلاء على جانب كبير منها، ووقع حاكم المدينة جبريل أسيراً في يد الأمير غازي، ولم تصمد أمامه سوى قلعة واحدة فطلب الأمير غازي من جبريل أن يصدر أوامره باستسلام حامية هذه القلعة ولكن رجال الحامية رفضوا الاستسلام، فتمّ قتل جبريل أمام أسوار القلعة ثمّ دهمها الأمير غازي وقواته وتمكنوا في النهاية من السيطرة على كافة أرجاء المدينة يوم الثامن عشر من سبتمبر ١١٠٢ م / الثالث من ذي الحجة ٤٩٥ هـ[2].

لم يؤثر سقوط ملطية على سير المفاوضات وظلّ الحال هكذا حتى مايو عام ١١٠٣ م / شعبان ٤٩٦ هـ، ولعلّ الأمير غازي لم يتسرع في الموافقة على شروط بوهمند ليرى رد الفعل الذي سينجم عن سقوط ملطية، ويبدو أنّ الصليبيين اهتموا بأمر بوهمند في هذه المرحلة أكثر من الاهتمام بأمر المدينة ومن فيها من الأرمن، أو أنّ هذه المدة كانت لازمة لجمع الفدية المطلوبة لإطلاق سراح بوهمند، وقد قام بلدوين أف بورج أمير الرها، وبطريق أنطاكية برنارد أف فالنس Bernard of Valence (١١٠٠ - ١١٣٥ م) والأمير

(١) ابن الأثير: المصدر السابق - جـ ١٠ - ص ٣٤٥.

(٢) Michael Le Syrian, op. cit., III, p. 188.

الأرميني كوخ باسيل Kogh Vasil بجمع الفدية المطلوبة، وفي مدينة ملطية وفي شهر مايو ١١٠٣ تمَّ إطلاق سراح بوهمند بعد أن قضى حوالي أربع سنوات في أسر الأمير غازي.[1] ويلاحظ أنَّ تانكرد لم يسهم بشيء يذكر من أجل إطلاق سراح خاله بوهمند، ولعلَّ في ذلك ما يشير إلى أنَّ تانكرد لم يكن راغباً في عودة بوهمند إلى أنطاكية ليظل حاكماً عليها. كما أنَّه من الملاحظ أيضاً أنَّ مملكة بيت المقدس لم تساهم بنصيب في الفدية المطلوبة، فهل كان بلدوين البولوني يشارك تانكرد الشعور نفسه؟

وعلى أية حال يمكن القول أنَّه ترتب على أسر بوهمند الذي استمر من يوليو ١١٠٠ حتى مايو ١١٠٣ عدة نتائج، منها أنَّ إمارته أنطاكية لم تعان من جراء أسره شيئاً، بل على العكس فإنَّ تانكرد قد أضاف إليها أدنه وطرسوس والمصيصه واللاذقية. أمَّا فيما يتعلَّق بإمارة الرها فقد فقدت خلالها مدينة ملطية. وفيما يتعلَّق بالأمير غازي فقد ضمَّ ملطية إلى أملاكه علاوة على الفدية التي تسلمها، ولكنه خسر في الوقت نفسه صداقة السلطان قلج أرسلان، وأغضب الإمبراطور الكسيوس لعدم موافقته على تسليم بوهمند إليه. وهناك جانب آخر يتعلَّق بالحملة اللمباردية التي هلك معظمها في آسيا الصغرى دون أن تستطيع تحرير بوهمند.

ومن النتائج أيضاً أنَّ بوهمند خرج من أسره متحالفاً مع الأمير غازي ضدَّ قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم، والإمبراطور

---

(١) Fulcher of Charter, op. cit, p. 175, William of Tyre, op. cit., I, p. 451.

البيزنطي الكسيوس وأخيراً خسر الصليبيون الفدية المالية التي قدموها لتحرير بوهمند.

هذا ما كان من النتائج التي ترتبت على أسر بوهمند وشروط إطلاق سراحه، أمّا النتائج التي ترتبت على عودة بوهمند إلى إمارته فهي متعددة أيضاً، منها أنَّ بوهمند عاد إلى أنطاكية حيث استقبل بالترحاب، وقدم الشكر لابن أخته تانكرد على ما فعله من أجل الحفاظ على الإمارة وعلى ما أضافه إلى أنطاكية من أراضي وهي أدنه وطرسوس والمصيصه، واسترضى بوهمند تانكرد بمدينتين صغيرتين ليتولى حكمها،(1)، ولا شك أنَّ عودة بوهمند إلى أنطاكية قد قوّى نفوس أهلها. ومع إحساس بوهمند بهذا الشعور فإنّه ما كاد «يستقر حتى أرسل إلى أهل العواصم وقنسرين وما جاورهما يطالبهم بالأتاوة فورد على المسلمين من ذلك ما طمس المعالم التي بناها الدانشمند»(2). وإذا كان هذا التصرف من قبل بوهمند لا يمس شروط الاتفاق مع الأمير غازي إلَّا أنَّه يمس جوهر القضية العامة بين المسلمين والصليبيين لأنَّ بوهمند عوَّض ما دفعه من فدية عن طريق جمع هذه الأتاوات.

(1) Radulph of Gaen, op. cit, p. 709.

(2) ابن الأثير: المصدر السابق - جـ ١٠ - ص ٣٤٥.

المبحث الثاني

أسر بلدوين دي بورج أمير الرها وجوسلين صاحب تل باشر

والمبحث الثاني في هذه الدراسة يتعلّق بأسر بلدوين أف بورج أمير الرها وابن عمته جوسلين Joscelin صاحب تل باشر. وجوسلين هذا كان أصغر أبناء حاكم كورتناي Courtenay، ويبدو أنّه حضر إلى الشرق مع وليم الثاني كونت نيفر William II Count Nevers عام ١١٠١ م. وعندما وصل إلى بلاد الشام عطف عليه بلدوين أف بورج ومنحه جانباً من إمارة الرها يقع غربي نهر الفرات، واشتمل هذا الإقطاع على تولوبا Tulupa (دلوك) وعين تاب والراوندان وغير ذلك على أن تكون تل باشر مركزاً له، ولذلك عرف في هذه المرحلة باسم جوسلين صاحب تل باشر، وقد حكم جوسلين هذه المناطق بكل همة وعناية[1]، وسوف يتولى حكم إمارة الرها منذ عام ١١١٨ - ١١٣١م/٥١٢ - ٥٢٦هـ.

---

(١) William of Tyre, op. cit., I, pp. 451 - 2.

وترجع أحداث أسر بلدوين أف بورج وجوسلين إلى أنَّه عقب إطلاق سراح بوهمند قام الصليبيون بالهجوم على بعض الممتلكات الإسلامية كما سبق أن أوضحنا. ويبدو أنَّ عدم رد المسلمين في حينه ضدَّ هذه الاعتداءات قد شجع الصليبيون في الرها على مهاجمة ممتلكات أخرى للمسلمين. ففي عام ٤٩٦ هـ /١١٠٢ م «خرج الفرنج من تل باشر وأغاروا على حلب الشمالي والشرقي وأحرقوه»، وتكرر ذلك منهم، ونزلوا على حصن بسرفوت الواقع في جبال بني عليم وهو من أعمال حلب وفتحوه بالأمان ووصلوا إلى كفر لاثا الواقع في سطح جبل عامله من نواحي حلب، ولكن بني عليم تصدوا لهم فعادوا إلى بسرفوت[1].

وفي عام ٤٩٧ هـ /١١٠٣ م أغار صليبيو الرها أيضاً على مرج الرقة وقلعة جعبر (دوسر) على الفرات واستاقوا المواشي وأسروا ما وقع بأيديهم من المسلمين[2]. وأعقب ذلك سقوط جبيل وعكا[3]. وقد شجَّع هذا كله الصليبيين في الرها على مزيد من الهجوم على البلاد الإسلامية. وهناك عامل آخر وهو إنشغال عساكر الإسلام وملوكه بقتال بعضهم البعض من أجل الحصول على مدينة حران حتى انتهى الأمر بقيام جاولي بقتل الأصبهاني حاكم المدينة. وقد دفع هذا الصليبيين في الرها على التفكير في الاستيلاء على

(١) ابن العديم: المصدر السابق ـ جـ ٢ ـ ص ١٤٨.
(٢) ابن الأثير: المصدر السابق ـ جـ ١٠ ـ ص ٣٦٩.
(٣) ابن القلانسي: المصدر السابق ـ ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

حران[١]. وبدأت أحداث هذه المعركة المعروفة باسم معركة حران عندما تجمع الصليبيون في الرها من أجل هذا الغرض، وكان على رأس القوات المجتمعة بلدوين أف بورج كونت الرها وجوسلين صاحب تل باشر وبندكت Benedict رئيس أساقفة الرها[٢].

وعند هذه المرحلة كانت الحرب دائرة بين سقمان بن أرتق صاحب ماردين وحصن كيفا وبين شمس الدولة جكرمش أتابك الموصل. ونظراً لهذه الأخطار أرسل كل منهما إلى الآخر يدعوه إلى الاجتماع لتلافي أمر حران، ويعلمه أنَّه بذل نفسه لله تعالى، وقد اتَّفق الرأي على الاتحاد لمواجهة الصليبيين، وكان مع سقمان سبعة آلاف من التركمان ومع جكرمش ثلاثة آلاف فارس من الترك والعرب والأكراد ونزل الجميع في أوائل شعبان ٤٩٧ / ٢٩ أبريل ١١٠٤ م برأس العين[٣].

وعندما أحسَّ الصليبيون بالرها باتفاق كلمة المسلمين وأنَّهم لا قبل لهم لمنازلة القوات الإسلامية استنجدوا بإخوانهم في أنطاكية، فنهض بوهمند وتانكرد وقواتهما[٤]، وسار معهم برنارد رئيس أساقفة أنطاكية، ودامبرت Daimbert بطريق القدس المعزول واتجهوا جميعاً إلى الرها لمساندة إخوانهم ضدَّ المسلمين[٥].

---

(١) ابن الأثير: المصدر السابق - جـ ١٠ - ص ٣٧٤.

(٢) William of Tyre, op. cit., I, p. 456.

(٣) ابن القلانسي: المصدر السابق - ص ١٤٣.

(٤) ابن القلانسي: الموضع نفسه.

(٥) William of Tyre, op. cit., I, p. 456.

وبمعنى آخر اتَّحدت الجبهة الصليبية الشمالية بكل قادتها وقواتها في الرها التي تبعد عن حران حوالي أربعين كيلو متر ضدَّ التجمع الإسلامي المتمركز في رأس العين التي تبعدْ عن حران حوالي تسعين كيلومتر.

كان التقدم الصليبي أسرع من التقدم الإسلامي إلى حران، فقد وصلت القوات الصليبية وحاصرت المدينة بأسرع مما توقعه أهلها لأنَّهم لم يخزنوا المؤن الكافية لهم، وتعذر عليهم بعد الحصار الخروج لجمع طعامهم من الحقول، ولم يكن أمام أهل المدينة سوى أن يرسلوا إلى أمراء الشرق يطلبون المساعدة لأنَّ المدينة على وشك السقوط في أيدي الصليبيين لقلَّة المؤن[1].

إنحصرت خطة الصليبيين في حصار المدينة فقط حتى يضطر أهلها للتسليم حتى لا يموتون جوعاً. وعندما علم أهل المدينة بذلك قرروا التسليم دون قيد أو شرط. وعند هذه المرحلة دبَّ النزاع بين بلدوين أف بورج أمير الرها وبوهمند أمير أنطاكية على من يملك المدينة بعد استسلامها، وهنا توقف أمر تسليم المدينة للصليبيين وصمد أهلها بداخلها[2]. وفي اليوم التالي التاسع من شعبان ٤٩٧ هـ / السابع من مايو ١١٠٤ م وصلت النجدات الإسلامية بأعداد كبيرة وبدأت المعركة، والتحمت إحدى الفرق الإسلامية مع إحدى الفرق الصليبية ولازت الأخيرة بالفرار[3]. كما تظاهرت

(١) William of Tyre, op. cit., I, p. 456.

(٢) Ibid., p. 457.

(٣) Ibid., p. 458.

بعض القوات الإسلامية بالإنسحاب فتبعتها بعض القوات الصليبية، ثمَّ قام المسلمون بحركة هجوم مضاد على القوات الصليبية وأنزلت فيها القتل[1]، وخلال هذه المعارك نجحت بعض القوات الإسلامية في إمداد المدينة بالمؤن[2].

وهكذا سيطر المسلمون على أرض المعركة، لذلك أدار الصليبيون ظهورهم إلى المسلمين وتركوا معسكراتهم بما فيها ولم يفكروا إلاَّ في النجاة بأرواحهم[3]. وحاول بوهمند وتانكرد تطويق القوات الإسلامية وقد أحرزا قدراً من النجاح ولكنهما لاحظا إنهزام القوات الصليبية فظلَّت قوات بوهمند في مواقعها حتى خيّم الظلام على المنطقة وحاولت الهرب، ولكن القوات الإسلامية تعقبت بوهمند ورجاله وقتلت وأسرت الكثير[4].

انتهت معركة حران بانتصار المسلمين نصراً حسناً لم يتهيأ مثله من قبل،[5] وكان من بين الأسرى بلدوين أف بورج أمير الرها، وجوسلين صاحب تل باشر وبندكت رئيس أساقفة الرها، ولكن الأخير نجح في الهرب ووصل إلى الرها بعد ثلاثة أيام، أما بوهمند وتانكرد فقد اتَّجها إلى الرها بعد فرارهما من أرض المعركة ولم

---

(١) ابن الأثير: المصدر السابق - جـ ١٠ - ص ٣٧٤.

(٢) William of Tyre, op. cit., I, p. 458.

(٣) Ibid., p. 459.

(٤) ابن الأثير: المصدر السابق، جـ ١٠ - ص ٤٩٧.

(٥) ابن القلانسي: المصدر السابق - ص ١٤٣.

يعلما بأسر بلدوين وجوسلين إلّا بعد وصولهما إلى المدينة[1]. وقد غنم المسلمون غنائم عظيمة[2]، واعتبر البعض أنَّ كارثة حران على الصليبيين كانت أكبر من أي كارثة سابقة[3].

والخلاصة أنَّ الصليبيين حاولوا استغلال الصراع بين المسلمين والاستيلاء على مدينة حران، ولكن اتحاد المسلمين في هذه المناطق قد فوت عليهم هذه الفرصة، كما أنَّ تأخر الصليبيين في الهجوم على المدينة أضاع وقتاً كان في صالح المسلمين، وأخيراً الأطماع الشخصية بين بوهمند وبلدوين حول امتلاك المدينة حتى سقطا بلدوين أف بورج وجوسلين أسيرين عند المسلمين.

أمَّا النتائج المترتبة على انتصار المسلمين وأسر بلدوين أف بورج وجوسلين فهي متعددة، منها أنَّ المسلمين تشجعوا بهذا النصر وانطلق جكرمش في إثر القوات الصليبية الهاربة ولاحقها حتى الرها وحاصر المدينة خمسة عشر يوماً عاد بعدها إلى الموصل،[4] دون أن يتمكن من دخول المدينة.

كما انطلق سقمان إلى حصون الفرنج في ديار ربيعه بعد أن ألبس رجاله ملابس الصليبيين الذين أسروا أو قتلوا، وعندما وصل إلى هذه الحصون خرج أهلها لاستقبال القادمين باعتبارهم قوات

---

(١) Fulcher of Charter, op. cit, p. 178.

(٢) ابن العديم: المصدر السابق - جـ ٢ - ص ١٤٨.

(٣) Fulcher of Charter, op. cit, p. 178.

(٤) ابن الأثير: المصدر السابق - جـ ١٠ - ص ٣٧٥.

صليبية، فتبعتهم قوات سقمان واستولت على عدَّة حصون منها حصن شبختان[1].

أمَّا الملك رضوان صاحب حلب فقد كان موجوداً عند الفرات يرقب الموقف، ولما علم بهزيمة الصليبيين أرسل قواته إلى الكور التي يسيطر عليها الصليبيون القريبة من حلب مثل الجزر وغيرها وأمر بالقبض على من بها من الفرنج، وتشجع أهل الفوعة وسرمين ومعرة مصرين وغيرها وفعلوا ذلك، كما هرب سكان بعض الحصون الأخرى إلى أنطاكية فاستولى رضوان على هذه الحصون[2].

وفيما يتعلَّق بالنتائج الخاصة بالجانب الصليبي فقد إنتهى الحال إلى وقوع بلدوين أف بورج أسيراً في قبضة جكرمش الذي ألقى به في سجن الموصل، أما جوسلين فقد أصبح أسيراً عند سقمان بن أرتق وأودعه حصن كيفا. وكان على الصليبيين تدبر أمر حكم الرها، فانتهى الأمر بتنصيب تانكرد وصياً عليها لحين عودة بلدوين أف بورج من الأسر، ويضيف وليم الصوري أن بوهمند تولى الوصاية على الأرض التي كان يحكمها جوسلين[3]، ولكن المصادر التي تحت أيدينا لا تؤيد ذلك. كما أنَّ الأحداث اللاحقة للأسر لا تشير إلى وصاية بوهمند على أملاك جوسلين، ولكنه يمكن

---

(١) ابن الأثير: الموضع نفسه.

(٢) ابن العديم: المصدر السابق - جـ٢ - ص ١٤٨ - ١٤٩.

(٣) William of Tyre, op. cit., I, p. 459.

القول أنَّ تانكرد كان يقوم بأعمال الوصاية تحت إشراف بوهمند. وظلَّ الحال هكذا حتى رحل بوهمند إلى الغرب في سبتمبر ١١٠٤ م/ محرم ٤٩٨ هـ، فتولى تانكرد أمر أنطاكية[١]، وعهد إلى ابن عمه ريتشارد كونت سالرنو بإدارة إمارة الرها نيابة عنه[٢].

وفيما يتعلَّق بإطلاق سراح بلدوين أف بورج وجوسلين، فقد بادر جكرمش بعرض إطلاق سراح بلدوين أف بورج مقابل إحدى الأميرات السلجوقيات وكانت قد وقعت في أسر تانكرد أو دفع مبلغ خمسة عشر ألف بيزنط، وتحمس بلدوين البولوني ملك مملكة بيت المقدس لذلك، ولكن بوهمند وتانكرد ماطلا في الرد على هذا العرض لأنَّ إطلاق سراح بلدوين أمير الرها يبعد تانكرد عن الإمارة. وعلى ذلك لم يتم تنفيذ هذا الاقتراح وظلَّ بلدوين أف بورج أسيراً عند جكرمش.[٣] وهكذا كانت الأطماع الشخصية الصليبية سبباً في بقاء بلدوين أف بورج وجوسلين في الأسر عدَّة سنوات.

وخلال المرحلة التالية لمعركة حران دبَّ النزاع بين الإمارات التركية في الشمال وانتهى الأمر بانتصار جاولي على جكرمش صاحب الموصل[٤]، ولكن السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه لم

---

(١) Fulcher of Charter, op. cit, p. 177.

(٢) Matthew D'Edessa, op. cit, p. 260.

(٣) Albert of Aix, op. cit, pp. 618 - 9.

(٤) ابن العبري. مختصر تاريخ الدول - بيروت - (د. ت) - ص ١٩٨.

يرض عن هذا العمل فأرسل قواته إلى الموصل لقتال جاولي، فاضطر جاولي للخروج من المدينة ومعه بلدوين أف بورج بعد أن أخذه من جكرمش(١).

أما جوسلين فلم تقدم لنا المصادر ما حدث له بعد أسره حتى إطلاق سراحه، ويلاحظ أنّه قد أطلق سراحه قبل بلدوين أف بورج. ويفهم من رواية ميخائيل السرياني أن تانكرد لم يقم بعمل شيئاً لإطلاق سراح جوسلين، ولكن أهل تل باشر قاموا بجمع الفدية اللازمة لتحرير جوسلين، وأنَّ بعض أهالي المدينة وضعوا أنفسهم كرهائن بدلاً من جوسلين الذي خرج لجمع فديته، وقد قام هؤلاء الرهائن بكسر باب المكان المحتجزين فيه وهربوا، وعلى ذلك تمَّ إنقاذ جوسلين دون دفع الفدية(٢).

وتذكر النصوص التي سجلها ابن الأثير في أحداث عام ٥٠٢ هـ (١١٠٨ ـ ١١٠٩ م) حول إطلاق سراح جوسلين عبارة أنَّ جوسلين كان «من فرسان الفرنج وشجعانها، وهو صاحب تل باشر وغيره، وكان أسر مع القمص [بلدوين أف بورج]. . . ففدى نفسه بعشرين ألف دينار»(٣). ولم تتحدَّث بعض المصادر اللاتينية عن إطلاق سراح جوسلين، وتحدَّث بعضها بمفهوم واحد عن إطلاق جوسلين وبلدوين، فقد ذكر وليم الصوري أنَّه في عام ١١٠٩ م

---

(١) ابن الأثير: المصدر السابق ـ جـ ١٠ ـ ص ٤٥٩.

(٢) Michael Le Syrian, op. cit., III, p. 195.

(٣) ابن الأثير: المصدر السابق ـ جـ ١٠ ـ ص ٤٦٠.

عاد كل من بلدوين وجوسلين إلى أراضيهما بعد خمس سنوات من الأسر عند المسلمين، وذلك بعد أن تمَّ الاتفاق على تقديم الرهائن ودفع فدية محددة، وأنَّ هؤلاء الرهائن تمكنوا من قتل حراسهم المكلفين بحراستهم في أحد القلاع بينما كان هؤلاء الحراس تحت تأثير الخمر(١).

من هذه المادة التاريخية المتاحة لنا يريد الباحث أن يخرج بنتائج محددة، هي من الذي أطلق سراح جوسلين، ومدَّة أسره، وتاريخ إطلاق سراحه، وكيف أطلق سراحه. وفيما يتعلَّق بالنقطة الأولى هي أنَّ جوسلين كان أسيراً عند سقمان بن أرتق، ولكن سقمان مات عام ٤٩٨ هـ/١١٠٤ - ١١٠٥ م، وحكم بعده ابنه إبراهيم حصن كيفا الذي كان يحتجز فيه جوسلين، فهل ظلَّ جوسلين عند إبراهيم بن سقمان، وهو الذي أطلق سراحه؟. والواقع أنَّ النصوص المتاحة لنا لا تقدم لنا مادة تاريخية صريحة في هذا الصدد، ويرى البعض أنَّ جوسلين انتقل إلى أيدي إيلغازي بن أرتق الذي حكم ماردين (٥٠٢ - ٥١٦ هـ / ١١٠٨ - ١١٢٢ م) عندما كان يعمل على الإطاحة بابن أخيه إبراهيم(٢). وفي هذا الرأي جانب من الصواب لأنَّ إيلغازي دخل ماردين عام ٥٠٢ هـ / ١١٠٨ - ١١٠٩ م(٣). أمَّا مدة أسر جوسلين وتاريخ إطلاق سراحه فإنَّ المتوفر لنا يشير إلى أنَّه أطلق

(١) William of Tyre, op. cit., I, p. 474.

(٢) Runciman, S., History of Crusades, Cambridge, 1952, II, p. 111.

(٣) ابن الأثير: المصدر السابق - جـ ١٠ - ص ٤٥٩.

سراحه بعد خمس سنوات طبقاً للمصادر العربية، وطبقاً للمصادر اللاتينية فإنَّ إطلاق سراح جوسلين تمَّ بعد خمس سنوات أيضاً وحدد بعام ١١٠٩ م. ولما كان إطلاق سراح جوسلين تمَّ قبل إطلاق سراح بلدوين بفترة قصيرة فسوف يترك الباحث هذه القضية لمناقشتها مع تاريخ إطلاق سراح بلدوين في الصفحات التالية مع الطريقة التي تمَّ بها إطلاق سراح بلدوين، لأنَّ أحداث إطلاق سراح بلدوين ستفسر لنا الكثير.

وعلى أية حال فقد عمل جوسلين بعد إطلاق سراحه على إطلاق سراح بلدوين أف بورج، ويقول ميشيل السرياني أنَّ الفدية التي تقررت على بلدوين كانت سبعين ألف دينار، وقد أخذ جوسلين معه ثلاثين ألف وذهب إلى قلعة جعبر ووضع نفسه رهينة مكان بلدوين وأخرجه من سجنه. ولما علم سلطان الموصل بأنَّ جوسلين عاد إلى السجن تعجب وطلب رؤيته لأنَّه لم يره من قبل وإنما سمع عن وقاره وهيبته. ولما رآه سلطان الموصل خفض الفدية عشرة آلاف دينار، فركع جوسلين وسجد على الأرض لتحية سلطان الموصل فخفض له عشرة آلاف دينار أخرى وأكلا وسرا، وفي الصباح عندما خرج السلطان برجاله طلب من جوسلين أن يركب حصانه وأعطاه سلاحه، وبينما كان السلطان واقفاً بين رجاله لاحظ قوَّة ووسامة جوسلين فأعجب به وأعاد له كل ما قدَّمه من فدية فعاد جوسلين مسروراً[1].

---

(١) Michael Le Syrian, op. cit., III, pp. 195 - 6.

أما ابن الأثير فقد روى في أحداث عام ٥٠٢ هـ/ ١١٠٨ - ١١٠٩ م حول إطلاق سراح بلدوين أنَّ الأخير قد بذل الأموال الكثيرة فلم يطلق سراحه، فلما كان الآن أطلقه جاولي وخلع عليه وكان مقامه في السجن خمس سنين، وقرر أن يفدي نفسه بمال، وأن يطلق أسرى المسلمين الذين في سجنه، وأن ينصره متى أراد ذلك منه بنفسه وعسكره وماله. فلما اتفقا على ذلك سير القمص أي بلدوين أف بورج إلى قلعة جعبر وسلمه إلى صاحبها سالم بن مالك، حتى ورد عليه جوسلين الذي سلَّم نفسه رهينة بدلاً من بلدوين الذي أطلق سراحه. ثمَّ أخذ جاولي جوسلين من قلعة جعبر وأخذ عوضاً عنه أخا زوجته، وأخا زوجة بلدوين، وبعد ما أطلق سراح جوسلين سار إلى بلدوين ليقوي به على تانكرد وليعمل على تنفيذ شروط الاتفاق الذي أطلق بلدوين على أساسها وإطلاق سراح أسرى المسلمين[١]. كما ذكر ابن الأثير في موضع آخر في أحداث عام ٩٤٧ هـ، أن جرمكش سار إلى حران فتسلمها واستخلف به صاحبه وسار إلى الرها فحصرها خمسة عشر يوماً وعاد إلى الموصل ومعه القمص الذي أخذه من خيام سقمان، ففاداه بخمسة وثلاثين دينار، ومائة وستين أسيراً من المسلمين[٢].

أمَّا المصادر اللاتينية فقد سبق أن أوضحنا أنَّ وليم الصوري أورد رواية واحدة حول إطلاق سراح جوسلين وبلدوين، أما فوشيه أف شارتر فقد ذكر أنَّ بلدوين ظلَّ أسيراً حوالي خمس سنوات، ثمَّ

---

(١) ابن الأثير: المصدر السابق - جـ ١٠ - ص ٤٦٠ - ٤٦١.
(٢) ابن الأثير: المصدر السابق - جـ ١٠ - ص ٣٧٥.

قدمت الرهائن التي أقسم بلدوين بالعمل على تحريرها، ولكن هذه الرهائن نجحت في قتل الحراس المكلفين بهم، وعلى ذلك هرب بلدوين من السجن[1].

بعد هذا العرض للمادة التاريخية المتاحة يريد الباحث أن يخرج بنتائج محددة كلما أمكن حول عدَّة نقاط وهي، من الذي أطلق سراح جوسلين وسراح بلدوين، والشروط التي تمَّ الاتفاق عليها لإطلاق سراحهما، وتاريخ إطلاق السراح.

من الصعب تحديد الشخصية التي أطلقت سراح جوسلين تحديداً دقيقاً لقصور المادة التاريخية ولكنه يمكن قبول الرأي القائل بأنَّ إيلغازي هو الذي أطلق سراحه وذلك بصورة مؤقتة فلعلَّ ظهور مادة تاريخية جديدة تنير لنا الطريق، أما عن الفدية التي قدمها جوسلين فالباحث لا يقبل الطريقة التي قدمتها بعض المصادر حول خروج جوسلين من الأسر وفرار الرهائن دون دفع الفدية، ولو كان ذلك صحيحاً لما تجرَّأ جوسلين بعد هذه الحادثة على التفاوض من أجل إطلاق سراح بلدوين ووضع نفسه رهينة مكانه. وعلى ذلك فالباحث يقبل ما ذكره ابن الأثير من أنَّ الفدية كانت عشرين ألف دينار[2].

أمَّا الذي أطلق سراح بلدوين فهو جاولي دون شك وهو الذي أطلق عليه ميشيل السرياني لقب سلطان الموصل لأن جاولي

(١) Fulcher of Charter, op. cit, p. 180.

(٢) انظر ما سبق ص ٣٣.

استولى على الموصل أواخر عام ٥٠٠ هـ/ صيف ١١٠٧ م ثمَّ استولى عليها مودود في صفر ٥٠٢ هـ / سبتمبر ١١٠٨ م. وعن الشروط التي تمَّ على أساسها إطلاق السراح، فقد كانت هناك فدية، وإطلاق الأسرى، وتحالف بين بلدوين وجاولي. وعن الفدية فقد ذكر ميشيل السرياني أنَّها سبعون ألف دينار ثمَّ تنازل عنها جاولي وهذا أمر غير مقبول لأنَّ جاولي كان محتاجاً إلى المال للدفاع عن الموصل ضدَّ مودود. أمَّا عن ما ذكره ابن الأثير حول أن جكرمش أطلق سراح بلدوين مقابل خمسة وثلاثين دينار ومائة وستين أسيراً، فهذا أمر غير مقبول لسببين، أنَّ فدية جوسلين وهو حاكم مدينة تل باشر من قبل بلدوين أف بورج أمير الرها كانت عشرين ألفاً، فكيف تكون فدية بلدوين هذا المبلغ الهزيل، ثانياً أنَّ جكرمش لم يطلق سراح بلدوين وأنَّ من أطلق سراحه هو جاولي، ولا بدَّ أن تكون الفدية أكبر من فدية جوسلين. وعلى ذلك ليس أمام الباحث سوى أن يقبل قيمة الفدية التي ذكرها ميشيل السرياني وهو سبعين ألفاً ودون تنازل جاولي عنها، أو إضافة كلمة «ألف إلى ما ذكره ابن الأثير فتكون خمسة وثلاثين ألفاً.

أمَّا بقية الشروط وهي إطلاق سراح أسرى المسلمين فقد ذكر ابن الأثير أنَّهم مائة وستين أسيراً، وهذا الرقم سليم ولكنه يتعلَّق بالدفعة الأولى التي أطلقها بلدوين، لأنَّ ابن الأثير ذكر في موضع آخر بعد إطلاق سراح بلدوين أنَّه أطلق من الأسرى المسلمين مائة وستين أسيراً كلهم من سواد حلب، وكساهم وسيرهم، ثمَّ عاد وذكر بعد ذلك «وعبر القمص [بلدوين أف بورج] الفرات ليسلم

إلى أصحاب جاولي المال والأسرى فأطلق في طريقه خلقاً كثيراً من الأسرى من حران وغيرها[1]. وهنا يود الباحث أن يشير إلى التصرف الإنساني الذي يعتبر أوّل حادثة في تاريخ الحروب الصليبية وهي أنَّ بلدوين أف بورج قد كسا بعض الأسرى وهم في طريقهم إلى جاولي. وقد فعل نور الدين زنكي الشيء نفسه وكسا الأسرى الصليبيين عندما عقد الهدنة عام ٥٥٤ هـ / ١١٥٩ م مع الدولة البيزنطية[2]، ويبدو أنَّ ذلك قد صار تقليداً نفذ في بعض الأوقات. وعلى أية حال ففيها يتعلّق بالشرط الخاص بتحالف بلدوين مع جاولي فقد نفذ بعد ذلك وسجلته الأحداث التالية لإطلاق السراح.

أما عن تاريخ إطلاق سراح جوسلين وبلدوين فليست لدينا تواريخ محددة موثوق بها عن هذا الموضوع، ولما كان إطلاق سراح جوسلين قد تمَّ قبل إطلاق سراح بلدوين بوقت قليل، ولما كان إطلاق سراح بلدوين قد تمَّ بعد خروج جاولي من الموصل، وقد أشار ابن الأثير أنَّ الاستعداد لفتح الموصل كان بعد قتل صدقة بن مزيد، ولما كان مقتل صدقة وقع في رجب ٥٠١ فبراير - ١٥ مارس ١١٠٨ م، وأنَّ الموصل حوصرت من رمضان ٥٠١ هـ /١٤ إبريل - ١٣ مايو ١١٠٨ م وسقطت في الجمعة الأخيرة من المحرم الخامس والعشرين من محرم ٥٠٢ هـ / الرابع من سبتمبر

---

(١) ابن الأثير: المصدر السابق - جـ ١٠ - ص ٤٦١ - ٤٦٢.

(٢) Gregire Le Pretre, Chronique, In R. H. C. Arm., I, p. 190.

١١٠٨ م، ولما كان إطلاق سراح بلدوين قد بدأ تنفيذه بعدما خرج جاولي من الموصل ووصوله إلى بليدة ماكسين القريبة من الموصل، ولما كان خروج جاولي من الموصل قد حدث قبل أو مع نزول عسكر مودود على المدينة في رمضان ٥٠٢ هـ / ١٤ إبريل ١٣ مايو ١١٠٨ م، ولما كان جاولي قد اتَّجه إلى نصيبين بعد الموصل، ثمَّ إلى دارا ثمَّ إلى ماردين ثمَّ إلى عرابان من الخابور ومنها إلى الرحبة ثمَّ إلى ماكسين حيث رتب أمر إطلاق سراح بلدوين(١)، فيمكن إضافة شهر على الأكثر بعد خروجه من الموصل وإضافة شهر آخر حتى تمَّ التنفيذ، فلعلَّ إطلاق سراح بلدوين قد وقع تقريباً في ذي الحجة عام ٥٠١ هـ / ١٢ يوليو ـ ١٠ أغسطس ١١٠٨ م، أمَّا إطلاق سراح جوسلين فيكون قبل ذلك، أي في ربيع عام ١١٠٨ م تقريباً، ولما كان الأسر قد وقع في السابع من مايو ١١٠٤ م فبذلك تكون مدَّة الأسر أربع سنوات وشهرين أو ثلاثة وليست خمس سنوات.

وقد ترتب على إطلاق سراح جوسلين أنَّه ساعد في إطلاق سراح بلدوين، أما عندما أطلق سراح بلدوين فقد ترتب عليه عدَّة نتائج. سبق أن أوضحنا أنَّه عندما أسر بلدوين أف بورج تولى تانكرد أمر الوصاية على الرها لحين عودة بلدوين، وعندما رحل بوهمند إلى الغرب إنتقل تانكرد ليتولى أمر أنطاكية وعهد إلى ريتشارد أف سالرنو بإدارة أمور الرها. ولما خرج بلدوين من أسره اتَّجه إلى الرها ولكنه مُنع من دخولها، فاتجه إلى تانكرد في أنطاكية ليطالب بإمارته،

---

(١) ابن الأثير: المصدر السابق، جـ ١٠، ص ٤٥٨ ـ ٤٦.

ولكن الأخير رفض عودة بلدوين وعرض عليه ثلاثين ألف بيزنط وخيلاً وسلاحاً وثياباً وغير ذلك، ورفض بلدوين هذا العرض واتّجه إلى تل باشر حيث تقابل مع جوسلين ليستعدا لعمل عسكري يسترد به بلدوين إمارته[1]. وكان بلدوين على صواب عندما رفض عرض تانكرد الذي يفقده إمارته مقابل بعض المال والخيول، أما تانكرد فقد كان يرى أنّه يحكم أنطاكية نيابة عن بوهمند الذي سيعود من الغرب إن آجلاً أو عاجلاً، ولعلّ خطته كانت هي أن يحتفظ بالرها لنفسه إذا ما عاد بوهمند.

استعدّ بلدوين يسانده جوسلين لحرب تانكرد معتمداً على تحالفه مع جاولي الذي أمدّه بسبعة آلاف من رجاله،[2] وكان اعتماد بلدوين أيضاً على أصهاره من الأرمن خاصة كواسيل Kogh Vasil صاحب رعبان وكيسوم الذي أيّده بألف فارس وألف من المشاة، وبهذه الإمدادات استعدّ بلدوين لحرب تانكرد، وكان اللقاء بالقرب من تل باشر[3]، في سبتمبر ١١٠٨ م / صفر ٥٠٢ هـ / حيث قامت الحرب الذي يمكن أن نسميها حرباً أهلية بين الرها وأنطاكية، ولعبت قوات جاولي جانباً كبيراً في هذه المعركة، فقد قتلت حوالي خمسمائة من قوات تانكرد[4].

---

(١) ابن الأثير: المصدر السابق - جـ ١٠ - ص ٤٦١.
Fulcher of Charter, op. cit, p. 180, William of Tyre, op. cit., I, p. 474.

(٢) Fulcher of Charter, op. cit, p. 180.

(٣) ابن الأثير: المصدر السابق - جـ ١٠ - ص ٤٦١.

(٤) Fulcher of Charter, op. cit, p. 180.

أحس تانكرد أنَّ الحرب ليست في صالحه رغم أنَّ الموقف لم يحسم بين الأطراف المتنازعة، لذلك قبل وساطة برنارد أسقف أنطاكية، كما قبل بلدوين هذه الوساطة لما كان للبطريق من نفوذ روحي بين الأطراف المتنازعة لأنَّ أسقف أنطاكية كان كالإمام عند المسلمين لا يخالف أمره[1].

وانتهى الأمر بتسليم بلدوين إمارة الرها في الثامن عشر من إبريل ١١٠٩ م / الحادي والعشرين من رمضان ٥٠٢[2] هـ، على عكس ما رواه ابن الأثير أنَّ الرها عادت إلى بلدوين في تاسع صفر ٥٠٢ هـ / الثامن عشر من سبتمبر ١١٠٨ م[3].

بعد ما صدق جاولي النية تجاه، بلدوين وأمدَّه بالرجال الذين أعانوه على النصر أرسل إليه الأخير بعد هذه الأحداث بقية الفدية وعدداً كبيراً من الأسرى، كما سمح بلدوين لمسلمي مدينة سروج بإعادة تعمير مسجدهم وأعدم حاكم المدينة المسلم المرتد، الذي تقول على الإسلام، إرضاء لمسلمي المدينة[4].

وكما ساند جاولي بلدوين ضدَّ تانكرد، فقد ساند بلدوين جاولي أيضاً ضد تانكرد عندما تحالف الأخير مع رضوان صاحب حلب الذي استولى على جانب من فدية بلدوين كانت في طريقها

---

(١) ابن الأثير: المصدر السابق ـ جـ ١٠ ـ ص ٤٦١.

(٢) William of Tyre, op. cit., I, p.p. 474 - 5.

(٣) ابن الأثير: المصدر السابق ـ جـ ١٠ ص ٤٦٢.

(٤) ابن الأثير: الموضع نفسه.

إلى جاولي[1]، وقد لبّى بلدوين نداء جاولي الذي تنازل في هذه المرحلة عن بقية الفدية المطلوبة من بلدوين، فهب الأخير ومعه جوسلين لمساعدة جاولي، ولكن أخبار سقوط الموصل أثّرت كثيراً على هذه المعارك، فقد هزم جاولي ولجأ كثير من رجاله إلى بلدوين وجوسلين «ففعلا معهم الجميل، وداويا الجرحى، وكسوا العراة وسيراهم إلى بلادهم»، أما جاولي فقد أحسّ بعجزه عن المقاومة فالتمس عفو السلطان فعفى عنه[2]. وهكذا نفذ جاولي وبلدوين كل الشروط التي التزما بها عندما أطلق سراح الأخير، عدا جانب من الفدية تنازل عنه جاولي طواعية.

(١) ابن الأثير: المصدر السابق - ج - ١٠ - ص ٤٦٣.

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق - جـ ١٠ - ص ٤٦٤ - ٤٦٦.

المبحث الثالث

أسر روبرت الأبرص صاحب ذردنا
ورينو مازوار كندسطبل أنطاكية

والمبحث الثالث في هذه الدراسة يتعلّق بأسر روبرت الأبرصي Robert The Laper سيد حصن ذردنا، ورينو مازوار Renaud Massoier كندسطبل Constable أنطاكية. وترجع أحداث أسر الإثنين إلى عام ٥١٣ هـ / ١١١٩ حيث دارت المعركة التي أطلق عليها البعض معركة ساحقة الدم، أو معركة البلاط[١] أو معركة دانيث البقل أو سرمداً[٢]، وترجع أسباب هذه المعركة بإيجاز إلى طماع روجر أف سالرنو Roger of Salerno حاكم أنطاكية (١١١٢ - ١١١٩ م / ٥٠٦ - ٥١٣ هـ) في مدينة حلب، فاستنجد أهلها بالأمير إيلغازي بن أرتق صاحب ماردين الذي لم

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق - جـ ١ - ص ٥٠٤ - ٥٠٦.
(٢) ابن القلانسي: المصدر السابق - ص ٢٠٠ - ٢٠١.

تكن لديه القوات الكافية للدفاع عنها في هذه المرحلة، الأمر الذي شجع الفرنج في المنطقة فساروا إلى نواحي حلب فملكوا بزاعة وغيرها كما خربوا مدينة حلب[1]. وفي هذه المرحلة كان إيلغازي في ماردين لجمع العساكر للدفاع عن المدينة، وعندما كان إيلغازي عند قلعة دوسر (جعبر) أتاه طغتيكين صاحب دمشق ٤٩٧ ـ ٥٢٢ هـ / ١١٠٤ ـ ١١٢٨ م وانضم إليه لقتال الفرنج بعدما جمعا حوالي أربعين ألفاً من الجنود[2]. أما القوات الصليبية فكان عددها أكثر من عشرين ألفاً غير الاتباع[3].

وخلال هذه الأثناء كانت القوات الصليبية تعيث فساداً فقتلت وأسرت واستولت على بعض الحصون وانتهى بها المطاف عند البلاط وهو موضع بين جبلين مما يلي درب سرمداً، بينما كانت القوات الإسلامية على مقربة منهم في حصن مطل على تل عفرين. وفي يوم السبت السابع عشر من ربيع الأول ٥١٣ هـ / الثامن عشر من يونيه ١١١٩ م وقعت معركة البلاط نسبة إلى المنطقة الذي قتل فيها ما يقرب من خمسة عشر ألفاً من الصليبيين[4]، ولعلّ هذا هو السبب بتسميتها عند الصليبيين باسم ساحة الدم Ager Sanguinis كما لقي روجر مصرعه في هذه المعركة بضربة سيف[5]، ولم يسلم

---

(١) ابن الأثير: المصدر السابق ـ جـ ١٠ ـ ص ٥٥٣.
(٢) ابن العديم: المصدر السابق ـ جـ ٢ ـ ص ١٨٦ ـ ١٨٧.
(٣) ابن القلانسي: المصدر السابق ـ ص ٢٠٠.
(٤) ابن العديم: المصدر السابق ـ جـ ٢ ـ ص ١٨٩.
(٥) William of Tyre, op. cit., I, p. 530.

من الصليبيين في هذه المعركة إلّا القليل قدره ابن العديم بمقدار عشرين نفراً[1].

هرب الصليبيون من المعركة بعد هذه الأحداث، كما لجأ بعض النبلاء منهم رينو مازوار سيد المرقب وكندسطبل أنطاكية إلى برج في مدينة سرمدا، ولاحقهم إيلغازي إلى هناك وأجبرهم على الاستسلام[2].

وكان من بين الأسرى روبرت الأبرص صاحب ذردنا الذي عرض على إيلغازي مبلغ عشرة آلاف دينار مقابل إطلاق سراحه، ولكن إيلغازي كان يطمع في المزيد فطلب من رجاله أن يمضوا به إلى طغتكين «لعلَّه يفزعه» فيزيد في الفدية، فلما دخل روبرت على طغتكين كان الأخير تحت تأثير الخمر فأخذ سيفه وضرب عنق روبرت الأمر الذي أحزن إيلغازي لحاجته إلى المال[3].

أمَّا رينو مازوار، فلم تقدم لنا النصوص ما حدث له بعد أسره، وقد تتبع الباحث ما ورد في المصادر عن الأسرى، فقد ذكر ابن الأثير أنَّه كان في جملة الأسرى أكثر من سبعين فارساً من مقدميهم، وحملوا إلى حلب فبذلوا في نفوسهم ثلاثمائة ألف دينار، فلم يقبل منهم، وغنم المسلمون منهم الغنائم الكثيرة[4]، كما ذكر

---

(١) ابن العديم: المصدر السابق - جـ ٢ - ص ١٨٩، ابن منقذ: الاعتبار - ليدن، ١٨٨٤ - ص ٨٨، ابن القلانسي: المصدر السابق - ص ٢٠٠ - ٢٠١.

(٢) William of Tyre, op. cit., I, p. 530.

(٣) ابن منقذ: المصدر السابق - ص ٨٨ - ٨٩.

(٤) ابن الأثير: المصدر السابق - جـ ١٠ - ص ٥٥٥.

ابن العديم، ولما حضر الأسرى بين يدي إيلغازي كان فيهم رجل عظيم الخلقة مشتهراً بالقوة[1]. ويتضح من ذلك أنَّ الإفراج عن الأسرى لم يتم فور المعركة، ولعلَّ ذلك بسبب قلَّة الفدية التي قدَّمها الأسرى وهي تعادل أربعة آلاف لكل فارس على الأكثر. ولكن المصادر الصليبية أشارت إلى رينو مازوار في أحداث صيف عام ١١٣٢ م / ٥٢٧ هـ بأنَّه تولى أمر الوصاية على أنطاكية وكان لا زال يحمل لقب كندسطبل أنطاكية[2]. ويفهم من ذلك أنَّ الأسرى كانوا في حوزة إيلغازي وقد سار بهم إلى حلب ولعلَّ إيلغازي هو الذي أطلق سراحه في مرحلة لاحقة مقابل فدية مناسبة لحاجته إلى المال.

---

(١) ابن العديم: المصدر السابق - جـ٢ - ص ١٩٠.

(٢) William of Tyre, op. cit., II, p. 55.

المبحث الثاني

القادة الصليبيون الأسرى في أيدي الحكام المسلمين

٥١٤ - ٥٣١ هـ / ١١٢٠ - ١١٣٧ م

١ ـ المبحث الأول : أسر جوسلين الأول أمير الرها، وبلدوين الثاني ملك مملكة بيت المقدس.

٢ ـ المبحث الثاني : بونز أمير طرابلس، وجيرالد أسقف طرابلس، وريموند الثاني أمير طرابلس

المبحث الأوّل

أسر جوسلين الأول أمير الرها
وبلدوين الثاني ملك مملكة بيت المقدس

والمبحث الأول في هذا الموضوع يتعلّق بأسر جوسلين الأول أمير الرها ١١١٩ - ١١٣١ م / ٥١٣ - ٥٢٦ هـ وبلدوين الثاني ملك مملكة بيت المقدس ١١١٨ - ١١٣١ م / ٥١٢ - ٥٢٦ هـ ، وهما الشخصيتان اللتان سبق أسرهما في معركة حران ١١٠٤ م وتحدثنا عنهما في المبحث الثاني من البحث الأول. وترجع بداية هذه الأحداث إلى أن بلك بن بهرام صاحب خرتبرت سار إلى الرها في شهر رجب ٥١٦ هـ / سبتمبر ١١٢٣ م، وظلّ محاصراً لها بعض الوقت ولكنه لم يظفر بها فرحل عنها[١]. ولم يكن جوسلين بالرها عندما حدث ذلك فقد كان في مدينة البيرة في طريقه إلى أنطاكية لإحضار زوجته، ولما علم بالهجوم على الرها وأنَّ بلك أخذ بعض

(١) ابن الأثير: المصدر السابق - جـ ١٠ - ص ٥٩٣.

الأسرى عاد إلى المدينة[1]. وفي الوقت نفسه أتى من أخبر بلك أنَّ جوسلين قد جمع قواته وأنه عازم على اللحاق به في الوقت الذي لم يكن مع بلك سوى أربعمائة فارس[1]، أو ثمانمائة[2].

تحمس الصليبيون لأخبار جمع جوسلين لقواته لملاحقة بلك، وكان أوّل المشجعين جاليران Galeran صاحب البيرة وهو ابن عم جوسلين، ولم يكن لديهما أية معلومات عن أنَّ بلك لا زال بالقرب منهم، لذلك أسرع جوسلين وجاليران ومعهما مائة فارس لملاحقة بلك طوال الليل وحتى منتصف اليوم التالي، وقد أرهقهم التعب والعطش فاقتربوا من الماء لتشرب خيولهم، وهي منطقة كان بلك قد عسكر فيها للصيد، وهكذا دخل الصليبيون معسكر بلك دون أن يشعرون وتلفتوا حولهم وأدركوا أنّهم هالكون لا محالة بعد ما تعذر عليهم العودة، لأنَّ قوات بلك قد حاصرتهم حاملة أقواسها وتصيدتهم وخيولهم الواحد بعد الآخر فقتلوا الكثير واستسلم الباقون، ومن بين من استسلم جوسلين وجاليران في الثالث عشر من سبتمبر ١١٢٢ م / التاسع من رجب ٥١٦[3] هـ. وقيد رجال بلك جوسلين وجاليران بالسلاسل واقتادوهما إلى بلك الذي لم

---

(١) Anonymous Syriec Chronicle, In Royal Asiatic Society 1933 P. 90.
وسوف نشير إليه بالاصطلاح (A. S. C).

(٢) Matthew D'Edessa, op. cit, p. 306.

(٣) Ibid., Loc. cit. A.S.C., pp. 90 - 91.
انظر أيضاً، ابن القلانسي: المصدر السابق ـ ص ٢٠٨.

يصدق ما حدث وأنَّ اثنين من أمراء الصليبيين أصبحا أسرى في لحظة واحدة وبطريقة لم يتوقعها[1].

كانت أولى النتائج التي ترتبت على هذه الغنيمة الباردة أن بلك أراد أن يستغل الموقف فطلب من جوسلين وجاليران أن يسلما ما بأيديهما من المعاقل ولكنهما رفضا وقالا: «نحن والبلاد كالجمال والحدج [أي الحِمل] متى عقر بعير حول رحله إلى آخر، والذي بأيدينا قد صار بيد غيرنا»[2]. ويبدو أنَّ بلك أراد استغلال وإذلال جوسلين، فوضعه في جلد جمل وخيَّط عليه[3]، وسار به ومعه جاليران أيضاً إلى الرها ليطالب أهلها بالتسليم، ولكن أهالي المدينة رفضوا الاستسلام[4]. ويبدو أنَّ قوات بلك لم تكن كافية لإسقاط المدينة أو القيام بعمل عسكري له قيمته فعاد ومعه أسيراه حيث أودعهما في حصن زياد (خرتبرت)[5].

كانت النتيجة الثانية لأسر جوسلين هي إحاطة الملك بلدوين بالأمر، ولم يكن بالقدس في هذا الوقت بل كان في الشمال ليسوى أمره مع بونز Pons أمير طرابلس (١١١٣ ـ ١١٣٧ م) الذي تمرَّد عليه، ثمَّ اتَّجه إلى أنطاكية التي كان يتولى أمر الوصاية عليها بعد وفاة روجر أف سالرنو حيث كانت هناك بعض المتاعب من الغارات

---

(١) ابن العديم: المصدر السابق ـ جـ ٢ ـ ص ٢٠٦.

(٢) المصدر السابق: الموضع نفسه.

(٣) ابن الأثير: المصدر السابق ـ جـ ١٠ ـ ص ٥٩٣.

(٤) A.S.C., p. 91.

(٥) Matthew D'Edessa, op. cit, p. 306.

التي شنها بلك على ممتلكات الإمارة[١]. ومن أنطاكية اتّجه بلدوين على الفور إلى الرها ليتدبر أمرها بعد أسر جوسلين. وأوّل ما قام به بلدوين هـو وضع إمـارة الرهـا تحت إدارة الراهب جـودفري Godfrey صاحب مرعش، وتولى بلدوين بنفسه أمر الوصاية على الرها بالإضافة إلى أنطاكية علاوة على كونه ملك بيت المقدس. وأثناء وجود بلدوين في الرها إشتكى إليه ميخائيل الأرميني صاحب كركر من كثرة غارات الأتراك على المدينة وأنّه لا يستطيع السيطرة على الموقف، فاستلم بلدوين كركر وعهد إلى ميخـائيل بمـدينة دلوك[٢].

ورغم كل ما فعله بلدوين فإنَّ بلك واصل الإغارة على كركر، ولم يكتف بذلك بل سار إلى عمق إمارة الرها وأغار على حصن منصور وسميساط وغيرهما، ويبدو أنَّ بلدوين كان قد زار هذه الأماكن ولكنه كان بعيداً عنها عندما أغار عليها بلك، لذلك وجب على بلدوين العودة إلى هذه الأماكن وليحضر القمح من كيسون وسميساط. وهي معلومة في غاية الأهمية توضح أهمية هذه الأماكن من الناحية الاقتصادية وسبب اهتمام الأطراف الإسلامية والصليبية بها. وعندما تقدم بلدوين لملاحقة بلك علم أنّه عند كيسون فاتّجه بقواته إلى قنطرة نهر سنجه التي تقع عليه مدينة كيسون. ويبذو أنَّ بلدوين كان يريد عبور النهر من هذه القنطرة

(١) William of Tyre, op. cit., I, pp. 539 - 540.

(٢) A.S.C., p. 91.

ولكنه فضَّل الراحة لبعض الوقت وأقام معسكره في هذا الموضع، ولم يكن يدري أنَّه يعسكر بالقرب من معسكر بلك[١]. وعندما خرج بلك للصيد في الصباح علم بوجود قوات صليبية بالقرب منه، فترك الصيد وأعدَّ قواته لملاقاة الفرنج، ودارت مذبحة[٢]، عند موضع اسمه أورش بالقرب من قنطرة سنجة[٣]. والواضح أنَّ القوات الإسلامية قد تعرَّفت على الملك بلدوين فأحاطت به من كل جانب، وأسرته في التاسع عشر من صفر ٥١٧ هـ / الثامن عشر من إبريل ١١٢٣ م[٤]، دون أن يتوقع ما حدث له، وعند هذه المرحلة هربت القوات الصليبية في الأنحاء المجاورة[٥]. وهكذا سقط بلدوين ملك مملكة بيت المقدس أسيراً بعد حوالي سبعة أشهر من أسر جوسلين.

استغل بلك أسر بلدوين فأخذه وسار به إلى مدينة كركر وطلب منه إصدار أوامره باستسلام المدينة ففعل، وتسلم بلك مدينة كركر بعد سبعة أيام من أسر بلدوين،[٦] أي في السادس والعشرين من صفر ٥١٧ هـ / الخامس والعشرين من إبريل ١١٢٣ م، ثمَّ رحل بلك بعد استلام المدينة إلى خرتبرت ومعه

---

(١) A.S.C. p. 91.

(٢) Matthew D'Edessa, op. cit, p. 307.

(٣) ابن العديم: المصدر السابق - جـ ٢ - ص ٢١١.

(٤) ابن القلانسي: المصدر السابق - ص ٢٠٩.

(٥) William of Tyre, op. cit., I, p. 540.

(٦) ابن العديم: المصدر السابق - جـ ٣ - ص ٢١١.

الملك مقيداً بالسلاسل حيث يوجد جوسلين وجاليران[١]، ويروى أن بلك قال لجوسلين سوف أحضر الملك بلدوين إليك وق نفذ بلك ما و عد به[٢].

خيَّم الحزن على الصليبيين لأسر بلدوين ملك مملكة بيت المقدس والوصي على إمارتي الرها وأنطاكية، ولم يبق سوى طرابلس ويحكمها بونز الذي تمرد بالأمس على الملك المأسور. وكان على الصليبيين تدبير أمر الوصاية على المملكة خاصة أنَّ الشائعات ذكرت أنَّ الملك قد مات. لذلك اجتمع الزعماء الصليبيون في مدينة عكا للتشاور وتولى رئاسة الحاضرين جورموند أف بيكيني Gormoned Of Piquigny بطريق القدس (١١١٨ - ١١٢٨ م)، وانتهى الاجتماع باختيار يوستاس الأول جارنيه Eustace I Garnier حاكم قيصرية وصيدا ليتولى أمر الدفاع عن المملكة، وصدر المرسوم الخاص بذلك لحين التأكد من أسر الملك أو موته[٣]، وظلَّ يوستاس في منصبه هذا حتى وفاته في الخامس عشر من يونيه ١١٢٣ م / السابع عشر ربيع ثان ٥١٧ هـ. وقد خلَّفه وليم أف بورس William of Bures أمير الجليل في منصبه حتى عودة بلدوين[٤]. كما ظلَّ الراهب جودفري وصياً على الرها[٥].

---

(١) ابن القلانسي: المصدر السابق - ص ٢٠٩.

Matthew D'Edessa, op. cit, p. 308.

(٢) A.S.C., p. 92.

(٣) Fulcher of Charter, op. cit, p. 240, William of Tyre, op. cit., I, p. 541.

(٤) Fulcher of Charter, op. cit, p. 246.

(٥) A.S.C., p. 92.

أمّا أنطاكية فقد ظلّ البطريق برنارد أف فالتز يتولى أمرها كما كان الحال قبل أسر الملك بلدوين. ومعنى ذلك أنّ إمارتي الرها وأنطاكية قد أصبحتا تحت حكم رجال الدين.

طار صواب الصليبيين للأحداث التي بدأت بأسر جوسلين وانتهت بأسر بلدوين، فهبّ الصليبيون من أنطاكية واتجهوا إلى حلب. ويبدو أنّ هذا التحرك كان مواكباً لتحرك بلدوين عندما تحرك لنجدة جوسلين، وأنّه كان هناك اتفاق سابق على قيام الملك بلدوين بالهجوم من الرها في اتجاه الشمال، وقوات أنطاكية بالهجوم في اتجاه الشرق، ولعلّ ما شجع صليبيو أنطاكية على مهاجمة حلب أنّهم اعتادوا الهجوم عليها. وفي هذه المرحلة كان يتولى أمر حلب سليمان بن عبد الجبار بن أرتق (٥١٦ ـ ٥١٧ هـ / ١١٢٢ ـ ١١٢٣ م)، ولم يكن له بالفرنج قوة، لذلك صالح الصليبيين وسلم لهم حصن الأثارب في ربيع أول ٥١٧ هـ / مايو ١١٢٣ م[١].

إنزعج بلك لأخبار تسليم الأثارب وهو الذي يحتجز ملك المملكة الصليبية وأمير الرها جوسلين في قلعة خرتبرت ويعمل على رفع لواء الجهاد ضدّ الصليبيين، ومن ذلك أنّه أغار على الرها بعد أسر بلدوين وأتلف المحاصيل والزروع وخرب ما أمكنه[٢]. لذلك أعدّ بلك قواته للسير إلى حلب، وقد اجتاز في طريقه حران

---

(١) ابن الأثير: المصدر السابق ـ جـ ١٠ ـ ص ٦١٠، ابن العديم: المصدر السابق جـ ٢ ـ ص ٢١٠.

(٢) A.S.C., p. 92.

واستولى عليها،[١] وقبض على صاحبها بركات بن أبي الفهم[٢]، وذلك بعد عدَّة أيام من تسليم الأثارب، واتَّخذ طريقه إلى حلب وظلَّ يحاصرها ويضايقها حتى تسلمها في أوَّل جمادي الأولى ٥١٧ هـ / السابع والعشرين من يونيه ١١٢٣ م. ومن حلب اتَّجه بلك إلى البارة وهاجمها وأسر أسقفها وقيَّده وأوكل إليه من يهتم به، ولكن الأسقف نجح في الهرب واتَّجه إلى كفر طاب، فعزم بلك على قتالها واسترجاع الأسقف واستعدَّ لذلك في الثاني عشر من جمادي الآخر ٥١٧ هـ / السابع من أغسطس ١١٢٣ م[٣].

وبينما كان بلك يلاحق أسقف البارة جاءت إليه الأخبار بأنَّ بلدوين وجوسلين وبقية الأسرى الصليبيين سيطروا على قلعة خرتبرت، واختلفت المصادر في ذكر تاريخ هذا الحدث، فقد ذكر المؤرخ السرياني المجهول أنَّه وقع في أغسطس ١١٢٣[٤] وسجل متى الرهاوي أنَّه وقع في أغسطس أيضاً[٥]، أما فوشيه أف شارتر فقد حدَّد أنَّه حدث في منتصف أغسطس[٦]، ومن المصادر العربية ذكر ابن القلانسي أنَّه وقع في ربيع أول ٥١٧ هـ / مايو

---

(١) ابن الأثير: المصدر السابق - جـ ١٠ - ص ٦١٠.

(٢) العظيمي: تاريخ العظيمي انظر:
Journal Asiatique, Juillet - Septembre, 1938, p. 392.

(٣) ابن العديم: المصدر السابق - جـ ٢ - ص ٢١٢ - ٢١٣.

(٤) A.S.C. op. cit, p. 92.

(٥) Matthew D'Edessa, op. cit, p. 308.

(٦) Fulcher of Charter, op. cit, p. 246.

١١٢٣ م. (١) أمّا العظيمي فقد روى أنّ هذه الحادثة وقعت في الثاني من جمادي الآخر ٥١٧ هـ / الثامن والعشرين من يوليو ١١٢٣ م(٢). ولكن الباحث يرى أنّ هذا الحدث وقع السادس من جمادي الآخرة ٥١٧ هـ / أول أغسطس ١١٢٣ م إستناداً إلى ترتيب الأحداث التالية.

وتتفق المصادر على أنّ هذه الأحداث مرجعها إلى مؤامرة تمّت في قلعة خرتبرت من أجل إطلاق سراح بلدوين وجوسلين وجاليران ومن معهم من الأسرى. وتذكر المصادر العربية أنّ الخطة بدأت بتدبير الملك وجوسلين(٣)، ويرى البعض الآخر أنّها من تدبير خارجي نفذته العناصر الأرمينية(٤)، بينما ذكر آخرون أنّه تمّ بتدبير بلدوين وجوسلين بمساعدة عناصر من داخل القلعة وخارجها بالاتفاق مع العناصر الأرمينية(٥).

واختلفت هذه المصادر حول عدد الأفراد الذين خططوا لدخول القلعة والطريقة التي دخلوا بها، فقد ذكر بعضهم أنّ

---

(١) ابن القلانسي: المصدر السابق - ص ٢١٠.

(٢) العظيمي: المصدر السابق - ص ٣٩٢.

(٣) ابن القلانسي: المصدر السابق - ص ٢٠٩ - ٢١٠، ابن الأثير: المصدر السابق - جـ ١٠ - ص ٦١٣، ابن العديم: المصدر السابق - جـ ٢ - ص ٢١٣.

(٤) Matthew D'Edessa, op. cit, p. 308, A.S.C., p. 92. William of Tyre, op. cit., I, p. 542.

(٥) Fulcher of Charter, op. cit, p. 247.

عددهم كان خمسين[1]، وذكر آخرون أنّهم كانوا عشرين[2]، وروى ثالث أنّ عددهم كان خمسة عشر[3].

وتدور هذه الأحداث أنّ المتآمرين تظاهروا بأنّهم مظلومين ونجحوا في الوصول إلى باب القلعة، وأنّهم كانوا متنكرين في زي الرهبان وأخفوا الخناجر تحت ملابسهم، وقد وصلوا إلى باب القلعة بحجة أنّهم أثناء قيامهم ببعض الأعمال للأديرة، أصابهم الأذى وإنّهم أتوا إلى الحاكم لحمايتهم. وقد نجحت هذه المجموعة في السيطرة على الموقف حتى وصلوا إلى مكان الملك الأسير ورفاقه وكسروا أغلالهم، وتطور الأمر حتى سيطر بلدوين ورفاقه على القلعة وعلى ما بداخلها من ثروات، وعندما علم الأرمن الذين بالمدينة بما حدث دخلوا القلعة وساندوا إخوانهم[4].

ورغم سيطرة الملك بلدوين ورفاقه على الموقف داخل القلعة إلاّ أنّه لم يكن بوسعهم الهرب، لذلك اتّفق الرأي بينهم على مساعدة جوسلين على الهرب وحلفوه على ألاّ يغير ثيابه ولا يأكل لحماً ولا يشرب إلاّ وقت القربان إلى أن يجمع الفرنجة ويصل بهم إلى خرتبرت ليخلصهم من الأسر[5]. وقد نجح جوسلين في الهرب

---

(١) William of Tyre, op. cit., I, p. 542.

(٢) A.S.C., op. cit, p. 92.

(٣) Matthew D'Edessa, op. cit, p. 308.

(٤) Fulcher of Charter, op. cit, p. 247, Matthew D'Edessa, op. cit, p. 308. A.S.C., pp. 92 - 3, William of Tyre, op. cit., I, p. 542.

(٥) ابن العديم: المصدر السابق ـ جـ ٢، ص ٢١٣.

ليلاً ومعه اثنان أو ثلاثة وساروا على الأقدام حتى خرجوا من المنطقة ثمَّ اتجهوا إلى كيسون[١]، وقد ساعدهم أحد الرعاة الأرمن حتى وصلوا إلى تل باشر[٢]. وبينما كان جوسلين يتخذ طريقه هارباً إلى تل باشر، كان بلك يتخذ طريقه من كفر طاب إلى خرتبرت ليخلصها من بلدوين ورجاله، وهي مسافـة تصل إلى حـوالي أربعمائة وستين كيلومتر، وقد قطعها بلك في حوالي أربعة أيام لذلك وصل بلك بعد حركة التآمر على القلعة بحوالي عشرة أيام طبقاً لرواية المؤرخ السرياني المجهول[٣]، أي في السادس عشر من جمادي الثاني ٥١٧ هـ / الحادي عشر من أغسطس ١١٢٣ م، وهي رواية مقبولة ومعقولة وتتفق مع ما ذكره ابن العديم[٤]، لذلك قبلها الباحث واستبعد الروايات الأخرى.

وعندما وصل بلك إلى خرتبرت وجد بلدوين ورجاله ومن ساعدهم يسيطرون على القلعة. ويبدو أنَّ الأمر لم يكن سهلاً لحصانتها، فألقى الحصار عليها وضربها بالمجانيق[٥]. ولا بدَّ أنَّ

---

(١) A.S.C., p. 93.

(٢) Fulcher of Charter, op. cit, p. 251.

(٣) A.S.C., p. 93.

(٤) ابن العديم. المصدر السابق جـ ٢ ص ٢١٣. وقد ذكر ابن العديم أنَّ بلك علم بأخبار التمرد في ١٢ جمادي الآخرة، فإذا أضفنا أربعة أيام يكون ١٦ جمادي الأخرى وهو تاريخ وصول بلك إلى خرتبرت. فإذا استبعدنا عشرة أيام طبقاً لرواية المؤرخ السرياني يكون السادس من جمادي الآخرة ٥١٧ م أول أغسطس ١١٢٣ م هو تاريخ التمرد.

(٥) Matthew D'Edessa, op. cit, p. 309.

بلك قد علم بهروب جوسلين وأدرك أنّه سيعود ومعه نجدة من الفرنج لإنقاذ الملك، لذلك واصل ضرب القلعة ليلاً ونهاراً حتى يسيطر على الموقف قبل وصول هذه النجدات.

وقد نجحت قوات بلك في تحطيم جانب من سور القلعة بعد عدّة أيام، وعند هذه المرحلة طلب بلك من بلدوين ورجاله الاستسلام. ووعد بالحفاظ على حياتهم[1]، ولكن بلدوين رفض آملاً أن يصل جوسلين لنجدته خاصة أنّه قد مضى وقتاً مناسباً على هروب جوسلين تمكنه من جمع الرجال وعودته.

واختلفت الروايات حول الأحداث التالية، فقد روى البعض أن بلك نجح في تحطيم بوابة القلعة التي تقع فوق المجرى المائي الذي يمد القلعة بالماء، وعند هذه المرحلة أدرك بلدوين أنّه لا فائدة من المقاومة وفقد الأمل في النجاة لذلك قرّر الاستسلام، وقد ذهب جاليران لإبلاغ بلك بموقف الملك وطلب من بلك تنفيذ ما وعد به وهو الحفاظ على حياتهم، وقد نفذ بلك وعده واستسلم بلدوين ورجاله وتسلم بلك القلعة[2].

ويروي وليم الصوري أنَّ سقوط القلعة يرجع إلى أنَّها تقع على تل مرتفع، وقد قام رجال بلك بحفر نفق داخل هذا التل وسنده بدعامات خشبية ثمَّ أعدوا المكان بطريقة تسهل حرق هذه الدعامات فانهار جانب من التل وأحد الأبراج وأحدث دوياً هائلاً،

---

(١) Fulcher of Charter, op. cit, p. 253., A.S.C. p. 93.

(٢) Fulcher of Charter, op. cit, p. 253 - 4. A.S.C., p. 93.

وهنا فقد بلدوين الأمل، فاستسلم بلدوين ورجاله دون قيد أو شرط حتى لا يهلكون داخل الحصن[1].

وأوجزت المصادر العربية كيفية استيلاء بلك على القلعة، فقد ذكر ابن القلانسي أنَّ بلك ضايق القلعة حتى استعادها[2]، وسجَّل ابن العديم[3] أنَّ بلدوين ورجاله استسلموا في الثالث والعشرين من رجب ٥١٧ هـ / السادس عشر من سبتمبر ١١٢٣ م. ومعنى ذلك أنَّ حركة التمرد دامت أكثر من شهر ونصف، ويشعر الباحث أنَّها مدَّة طويلة إلى حد ما، ولعلَّ ذلك يوضح أنَّ حركة التمرد كانت كبيرة، وأنَّ عدداً كبير من الأرمن المواطنين في المنطقة وما حولها قد ساندوا هذا التمرد.

كان لهذا التمرد أثراً كبيراً عند بلك، فكان أول ما فعله بعد استسلام بلدوين ورفاقه هو نقلهم إلى سجن مدينة حران[4]، كنوع من التضليل حتى إذا وصلت النجدات لإنقاذ الملك فإنَّها لا تستطيع تحقيق أهدافها. كما أعدم بلك حوالي خمسة وستين من الرجال الأسرى، وثمانين امرأة جميلة وعلَّق رؤوسهم على أسوار القلعة على حد تعبير متّى الرهاوي[5]. ويتضح من ذلك أنَّ النساء

---

(١) William of Tyre, op. cit, pp. 543 - 4.

(٢) ابن القلانسي: المصدر السابق - ص ٢١٠.

(٣) ابن العديم: المصدر السابق - جـ ٢ - ص ٢١٣.

(٤) Fulcher of Charter, op. cit, p. 254.

راجع أيضاً: ابن العديم: المصدر السابق - جـ ٢ ص ٢٣١.

(٥) Matthew D'Edessa, op. cit, p. 309.

لعبت دوراً كبيراً في إغواء الحراس مما سهل خطة المتآمرين في السيطرة على القلعة. وتطرف المؤرخ السرياني المجهول وذكر أنَّ بلك سلخ عدداً من الأرمن أحياء[1]. وعلى أية حال لقد قاست العناصر الأرمينية كثيراً من جراء هذه الأحداث[2]، كما عاقب بلك رجاله لتراخيهم في حفظ القلعة وأعدم بعضهم[3].

وفي الوقت الذي كان بلك يعمل فيه للسيطرة على قلعة خرتبرت كان جوسلين قد وصل إلى أنطاكية في منتصف أغسطس ١١٢٣ م / العشرين من جمادي الثاني ٥١٧ هـ، لجمع المزيد من النجدات، ومنها اتَّجه إلى القدس التي وصلها بعيد حوالي شهر لجمع نجدات أخرى، من أجل إنقاذ بلدوين ورفاقه.

وكان لوصول جوسلين إلى القدس رد فعل كبير، فقد قامت القوات الصليبية بعبور نهر الأردن، وأغارت على تلك النواحي وأسرت الرجال والنساء والأطفال وجمعوا الجمال والأغنام وواصلوا سيرهم حتى طبرية، ثمَّ عادوا أدراجهم إلى القدس حيث قاموا بتوزيع الغنائم والأسرى[4].

أمَّا جوسلين فلعة جمع من نجدات بيت المقدس ما أمكنه، ثمَّ اتَّجه إلى الشمال حيث كانت النجدات الأخرى قد استعدَّت

---

(١) A.S.C. p. 93.

(٢) Fulcher of Charter, op. cit, p. 254.

(٣) ابن العديم: المصدر السابق - جـ ٢ - ص ٢١٣.

(٤) Fulcher of Charter, op. cit, pp. 251 - 3.

للتوجه إلى خرتبرت وقد لعب الراهب جودفري الوصي على إمارة الرها دوراً كبيراً في جمع النجدات وإلهاب حماسها[1]، وظلَّ منتظراً قدوم جوسلين في تل باشر مركز تجمع القوات الصليبية حيث وصل إليها جوسلين بعد فوات الأوان، لقد سيطر بلك على القلعة،[2] ونقل بلدوين ورفاقه إلى حران، ولم يكن هذا المكان معـروفاً للصليبيين في هذه المرحلة.

إشتاط جوسلين غضباً وأحسَّ أنَّ ما بذله من جهد لجمع النجدات أصبح عديم الفائدة لإنقاذ بلدوين من الأسر، ولكنه استغلَّ هذه القوات وقام بعمـل انتقامي وهـاجم حلب، وقد أفاضت بعض المصادر في الأعمال التخريبيـة بالمنـاطق المحيطة بالمدينة حتى أنَّ المساجد لم تسلم من أعمال التخريب، وكان رد فعل أهل حلب هو القيام بتحويل عدداً من الكنائس إلى مساجد تعويضاً عن مساجدهم. كما شجعت أعمال جوسلين الصليبيين في أنطاكية فخرجوا بدورهم وخربوا الممتلكات الإسـلامية القـريبة منهم. وليس لنا أن نسرد تفاصيل هذه الأحداث ولكن الباحث أثبتها كرد فعل انتقامي من الصليبيين عندما عجزوا عن إنقاذ بلدوين من الأسر. كما أنَّ بلك قام من جانبه أيضاً ببعض الأعمال الانتقامية وإن كانت أقل من أعمال جوسلين[3]. والمهم أنَّ هذه

---

(١) Matthew D'Edessa, op. cit, p. 309.

(٢) ابن العديم: المصدر السابق - جـ ٢ - ص ٢١٤.

(٣) Fulcher of Charter, op. cit, p. 252., A.S.C., op. cit, p p. 93 - 4.

الأحداث انتهت بعودة بلك إلى حلب ومعه أسيره بلدوين فحبسه في قلعة المدينة(١).

كان لقاء بلك وجوسلين على مدينة منبج التي انتزعها بلك من صاحبها حسان بن كمشتكين، ولكن أخوه عيسى دخل حصن المدينة وأرسل إلى جوسلين لنجدته، والتقت قوات بلك بقوات جوسلين عند منبج في الثامن عشر من ربيع الأول ٥١٨ هـ / الخامس من مايو ١١٢٤ م، حيث هزم جوسلين ونالت قوات بلك من القوات الصليبية كثيراً. وبعد أن ارتاح بلك من جوسلين وقواته عزم على التوجه إلى مدينة صور لنجدتها من الحصار الصليبي، وفي هذه المرحلة أصابه سهم أودى بحياته وخلفه ابن عمه تمرتاش بن إيلغازي(٢). وهكذا مات بلك بعدما أرهب الشمال الفرنجي وأدّى دوراً رائعاً في الجهاد ضدَّ الصليبيين.

لم يستمر حبس بلدوين كثيراً عند تمرتاش في حلب، والواقع أنَّ المصادر المتاحة لا تمدنا بأسباب تعجل تمرتاش بإطلاق سراح بلدوين ورفاقه. ولكنه يمكن القول أنَّ تمرتاش لم يكن على مستوى المسئولية التي تحملها، فقد غادر حلب التي اختلت أحوالها من كثرة ما عين وعزل من الحكام وعاد إلى ماردين واستقرَّ بها(٣)، لأنَّه رأى أنَّ الشام كثيرة الحروب مع الفرنجة، كما أنَّه كان رجلاً يحب الدعة

(١) ابن العديم: المصدر السابق - جـ ٢ ص ٢١٤ - ٢١٧.

(٢) ابن العديم: المصدر السابق - جـ ٢ ص ٢١٨ - ٢١٩.

(٣) ابن الأثير: المصدر السابق جـ ١٠ - ص ٦١٩.

والرفاهية[1]. لهذا كله فكر تمرتاش في فك أسر بلدوين مقابل الحصول على المال وبعض القلاع.

وبعد أشهر قليلة من توليه تمرتاش، وفي أول جمادي الأولى ٥١٨ هـ / السادس عشر من يونيه ١١٢٤ م توسط أبو العساكر سلطان بن منقذ بين تمرتاش والقادة الصليبيين من أجل إطلاق سراح بلدوين[2]، ويبدو أنَّ ذلك كان بناء على طلب تمرتاش، وأنَّ مورفيا زوجة بلدوين قد لعبت دوراً في هذه المرحلة بالإضافة إلى جوسلين[3]، وقد تمَّ الاتفاق على إطلاق سراح بلدوين ورفاقه مقابل فدية قدرها ثمانون ألف دينار[4]، أو مائة ألف دينار كما ورد في مصادر أخرى[5]، والصواب هي مائة ألف دينار، وتسليم قلاع الأثارب والجزر وكفر طاب وعزاز إلى تمرتاش،[6] كما استغل تمرتاش هذه الفرصة لإرضاء الخليفة العباسي المسترشد ٥١٣ ـ ٥٢٩ هـ / ١١١٨ ـ ١١٣٥ م، والسلطان السلجوقي محمود ٥١١ ـ ٥٢٥ هـ / ١١١٧ ـ ١١٣١ م في بغداد وضمن شروطه تحالفاً مع بلدوين ضدَّ دبيس بن صدقة الذي أغضب الخليفة والسلطان ولجأ إلى سالم بن مالك صاحب قلعة جعبر واستجار به فأجاره. يضاف

---

(١) ابن العديم: المصدر السابق ـ جـ ٢ ص ٢٢٠.

(٢) ابن منقذ: المصدر السابق ص ٨٩.

(٣) Matthew D'Edessa, op. cit, p p. 312 - 3.

(٤) ابن العديم: المصدر السابق ـ جـ ٢، ص ٢٢١.

(٥) Matthew D'Edessa, op. cit, p. 313, William of Tyre, op. cit., II, p. 21.

(٦) ابن العديم: المصدر السابق ـ جـ ٢ ـ ص ٢٢١.

إلى ذلك أنَّ دبيس كان طامعاً في حلب، فقد كاتب قوماً من أهل حلب وأرسل إليهم الأموال مقابل تسليم المدينة، ولكن تمرتاش علم بهذه الأحداث وقتل المتآمرين[1].

اشترط تمرتاش لتنفيذ ذلك أن يدفع بلدوين عشرين ألف دينار قبل إطلاق سراحه وأن يقدم الرهائن حتى يفي بوعده[2]، ونفذ بلدوين ما طلب منه وقدم ابنته الصغرى جوفتا Joveta وكان عمرها خمس سنوات، وجوسلين وكان طفلاً في الحادية عشر من عمره وهو ابن جوسلين أمير الرها وخمسة عشر آخرين من الرهائن[3]، أو أنَّ مجموع الرهائن كان إثنا عشر[4].

بعدما تمَّ هذا الاتفاق فكَّت قيود بلدوين وأحضر إلى مجلس تمرتاش فدعاه إلى مائدته، ثمَّ خلع على بلدوين كسوة ملكية وقلنسوة وخفا وحذاء وأعاد إليه حصانة الذي كان يركبه يوم أسره وأخذه منه بلك، [5] وهي معلومة تستحق الوقوف عندها لما لها من بُعد حضاري يسجل للأمير تمرتاش. ثمَّ سير بلدوين إلى شيرز حيث تمَّ دفع مقدم الفدية وتقديم الرهائن، ثمَّ أطلق سراح بلدوين في السابع عشر من رجب ٥١٨ هـ / الثلاثين من أغسطس

---

(١) ابن العديم: المصدر السابق - جـ٢ - ص ٢٢١ - ٢٢٢.

(٢) ابن العديم: المصدر السابق - جـ٢ ص ٢٢١.

(٣) Fulcher of Charter, op. cit, p. 281, Matthew D'Edessa, op. cit, p. 313.

(٤) ابن العديم: المصدر السابق - جـ٢ - ص ٢٢٢.

(٥) ابن العديم: الموضع نفسه.

١١٢٤ م[1]، بعد أن قضى في الأسر حوالي سنة وأربعة شهور ونصف، واتَّخذ طريقه من شيزر إلى أنطاكية[2]. ويتضح من نصوص متّى الرهاوي أنَّ الملكة مورفيا زوجة بلدوين التي كانت في الممتلكات الصليبية في الشمال وجوسلين قد قاما بدور كبير في جمع الفدية بالإضافة إلى دورهما في المفاوضات[3].

توجَّه الملك بلدوين من شيزر إلى أنطاكية ولعلَّ زوجته كانت هناك في هذه المرحلة لذلك اتَّجه إليها وليس إلى سواها، كما أن توجه الملك إلى أنطاكية يرجع إلى أنَّ جانباً من الاتفاق يتعلّق بتسليم بعض قلاع إمارة أنطاكية إلى تمرتاش. وإذا كانت عودة بلدوين قد قوبلت بالترحاب من جانب عامة الصليبيين، إلَّا أنَّ الإدارة الصليبية في أنطاكية وعلى رأسها البطريق برنارد أف فالنر لم تسر لعودة بلدوين حاملاً شروطاً أكثر من طاقته ولا يملك تنفيذها. فقد إعترض البطريق على بعض شروط الاتفاقية خاصة تسليم بعض قلاع أنطاكية، وعلى بلدوين أن يتحمَّل أخطاءه وليست إمارة أنطاكية.

والواضح أنَّ بلدوين لم يتمكن من إقناع قادة أنطاكية بوجهة نظره حول شروط إطلاق السراح، لذلك أرسل إلى تمرتاش في هذا المعنى وذكر «أنَّ البطريق الذي لا يمكن خلافه سألني عمَّا بذلت،

---

(١) ابن العديم: الموضع نفسه.

(٢) William of Tyre, op. cit., II, p. 21.

(٣) Matthew D'Edessa, op. cit, p.p. 312 - 3.

وما الذي استقر فحين سمع حديث عزاز وتسليم حصنها مني أبي، وأمرني بالدفع عنها وقال أنَّ خطيئتك تلزمي، ولا أقدر على خلافه»، وترددت الرسل بين تمرتاش وبلدوين ولم يستقر الأمر على إتفاق لحل المشكلة(١).

ولم تمدنا المصادر بتفاصيل حول هذا الموضوع، وأنَّ ما ذكرته هو أنَّ عودة بلدوين أوقعت الصليبيين في مشكلة دفع الفدية وتحرير الرهائن(٢). ومعنى ذلك أنَّه لم يكن للملك بلدوين سلطة على إمارة أنطاكية، كما أنَّ القادة الصليبيين في أنطاكية أو المحكمة العليا وجدت أنَّ عدَّة قلاع أهم من الملك.

وعلى أية حال لم يتنازل تمرتاش عن شروطه حتى هذه المرحلة، ونظراً لموقف زعماء أنطاكية والبطريق برنارد من بلدوين لم يكن لديه سوى التفكير في استعمال القوة لتحرير الرهائن الموجودة في مدينة شيزر مقابل رهائن بني شيزر الموجودين في حلب(٣).

ولعلَّ ما دفع بلدوين إلى استخدام القوة هو أنَّ دبيس بن صدفة قد علم بما تمَّ عليه الاتفاق ضدَّه، ولما علم دبيس بالخلاف القائم بين بلدوين وتمرتاش وسّط مالك بن سالم صاحب قلعة جعبر بينه وبين بلدوين وجوسلين للتحالف ضدَّ تمرتاش. وتمَّ الاتفاق على مهاجمة حلب واستيلاء دبيس عليها مع ترك جانب منها

---

(١) ابن العديم: المصدر السابق - جـ ٢ - ص ٢٢٢.

(٢) William of Tyre, op. cit., II, pp. 21 - 2.

(٣) William of Tyre, op. cit., II, p. 22.

للصليبيين، وأن يكون لهم أيضاً الأموال والأرواح. ولم يعلم تمرتاش بما تمَّ الاتفاق عليه، ولكنه علم بوجود دبيس عند مرج دابق فتوجه إليه تمرتاش وهزمه واتَّجه إلى حلب حيث علم بما تمَّ الاتفاق عليه بين دبيس وبلدوين[1].

أحسن تمرتاش أنَّ عليه مواجهة بلدوين وجوسلين وحليفهما دبيس فاتجه إلى ماردين ليستنجد بأخيه سليمان صاحب ميافارقين ويجمع العساكر[2]. وكان من الأفضل عسكرياً أن يظل تمرتاش في حلب ويرسل في طلب النجدات. ولعلَّ تحركه بنفسه يرجع إلى عوامل متعددة لا تقدمها لنا المصادر، وإنَّما يمكن استنتاجها من شخصية تمرتاش نفسه وما عرف عنه من ميله للهو والدعة، وأن خروجه من حلب كان أشبه بالهرب من المدينة تحت ستار طلب النجدات. ولعلَّ هناك عوامل أخرى ساعدت على هذا الموقف، منها أنَّ تمرتاش عندما ذهب إلى ماردين كان أخوه سليمان قد مات، فسار تمرتاش إلى ميافارقين وانشغل بأمرها وتملكها عن مدينة حلب[3].

لقد أصبح أمر الدفاع عن حلب فوق طاقة تمرتاش، وليس هناك من الأمراء المسلمين من يساعده، بل على العكس لقد ناصبه البعض العداء، لذلك ترك أمر حلب ليتولاها القاضي أبو

---

(١) ابن العديم: الموضع نفسه.

(٢) ابن العديم: الموضع نفسه.

(٣) ابن العديم: المصدر السابق ـ جـ٢ ـ ص ٢٢٥

الفضل بن الخشاب وليس لديه سوى خمسمائة فارس[1]. وخلال هذه المرحلة كانت الرسل تتردد بين تمرتاش وبلدوين من أجل التنازل عن جانب من الشروط المتفق عليها خاصة تسليم القلاع. ولما طالت المفاوضات دون الوصول إلى نتيجة عادت رسل تمرتاش من عند بلدوين في الثامن عشر من شعبان ٥١٨ هـ / آخر سبتمبر ١١٢٤ م، لتخبره بأنَّ بلدوين قد نقض الهدنة[2]. أي بعد حوالي شهر من إطلاق سراحه، وليس من المعقول أن يتخذ بلدوين هذا الموقف بعد هذه المدة القصيرة ويعرض حياة الرهائن بما فيهم ابنته للخطر إلَّا إذا كان متأكداً إلى حد كبير أنَّ القضية ستكون لصالحه، أو أنَّ الضغوط التي لاقاها من قادة أنطاكية كانت أقوى مما يحتمله، أو أن بني منقذ في شيزر ـ حيث توجد رهائن الفرنجة ـ قد وعدوه بالحفاظ على أرواح الرهائن.

بدأت العمليات العسكرية من اتجاهين وتشكيلين، الأول عليه دبيس بن صدقة وجوسلين من تل باشر في اتجاه حلب، والثاني وعليه بلدوين وأخذ اتِّجاهه من أرتاح إلى حلب أيضاً. وقد عاثت هذه القوات فساداً في كل النواحي التي مروا بها. وسوف لا يخوض الباحث في تفاصيل حصار حلب حتى لا يكون هناك خروجاً على محور البحث، وموجز القول أنَّ الحصار كان شديداً على المدينة، وعان أهلها الكثير. وقد أرسلوا إلى تمرتاش يدعوه للحضور لنجدتهم وقد وعد ولكنه لم يفعل، لذلك اتَّجه الحلبيون إلى طلب

(١) ابن العديم: الموضع نفسه.

(٢) ابن العديم: المصدر السابق ـ جـ ٢ ـ ص ٢٢٣.

النجدة من أقسنقر البرسقي صاحب الموصل[1] (٥١٥ ـ ٥٢٠ هـ / ١١٢١ ـ ١١٢٦ م) بعد أن قاسوا الكثير من جراء الحصار[2].

لبّى البرسقيّ نداء أهل حلب رغم مرضه واتّجه إلى المدينة، ووفدت إليه نجدات من حمص ودمشق بلغ عددها سبعة آلاف فارس، وأربعة آلاف دابة محملة بالمؤن، وقد نجح البرسقي في هزيمة الفرنجة ودفعهم عن حلب فعادوا إلى بلادهم[3]، ودخل البرسقي حلب وأصلح أحوالها[4].

وما يعنينا في هذه المرحلة هو رهائن الفرنج في شيزر، ورهائن بني منقذ في حلب. ويبدو أنّ البرسقي أراد أن يريح نفسه من مشكلة الرهائن حتى يلتفت إلى أمور دولته الداخلية التي اتّسعت بعد إضافة حلب، ويبدو أيضاً أنّ بعض الأطراف لعبت دوراً للتوسط لإنهاء هذه القضية، لذلك كله أطلق البرسقي رهائن بني منقذ من الاعتقال بقلعة حلب ورحل إلى تل السلطان ويعرف أيضاً باسم الفنيدق وهو من أعمال حلب ـ في أواخر المحرم ٥١٩ هـ / حوالي الثامن من مارس ١١٢٥ م، ومنها إلى شيزر فوصلها في سابع صفر / الخامس عشر من مارس، وسلم رهائن بني منقذ وتسلم رهائن الفرنجة «فباعهم بثمانين ألف دينار حملت

(١) ابن القلانسي: المصدر السابق ـ ص ٢١٢.

(٢) Fulcher of Charter, op. cit, p.p. 273 - 4.

(٣) Ibid., p. 274.

(٤) ابن القلانسي: المصدر السابق ـ ص ٢١٢.

إليه»[1]. فإذا أضفنا عشرين ألف دينار دفعت عند إطلاق سراح بلدوين يكون الإجمالي مائة ألف.

ويبدو أنَّ هذا التصرف كان لإثبات حسن النوايا، وأنَّه كان جانباً من الاتفاق الذي لم يوضع في صورته النهائية. والمهم أنَّ الرهائن اتَّخذت طريقها من شيزر إلى بلادها، وقد كمن لهم بعض الفرسان من أهل حمص وأخذوهم، ولكن أهل شيزر نجحوا في استردادهم[2]، وسيروهم إلى بلادهم.

ولم ينتظر الملك بلدوين ما يحدث بعد ذلك فقد خلص من الأسر وفك حجز الرهائن بما فيهم ابنته فرحل إلى بيت المقدس ووصلها في الثالث من إبريل ١١٢٥ م / السادس والعشرين من صفر ٥١٩هـ[3]، أي بعد تسعة عشر يوماً من الإفراج عن الرهائن تاركاً أمر الصليبيين في الشمال ليتصرفوا كما يحلوا لهم.

وبعد حوالي ستة أشهر، وفي العشرين من شعبان ٥١٩ هـ / الحادي والعشرين من سبتمبر ١١٢٥ م، تمَّ الاتفاق بين البرسقي والفرنجة على مناصفة البرسقي لبعض أملاك الصليبيين مثل جبل السماق[4]، الواقع إلى الغرب من حلب شمال معرة النعمان. ويبدو أنَّ الظروف أجبرت الصليبيين على هذا التنازل أو أنَّهم قدموه

(١) ابن العديم: المصدر السابق - جـ ٢ - ص ٢٣٠ - ٢٣١.
(٢) ابن منقذ: المصدر السابق - ٧٦.
(٣) William of Tyre, op. cit., II, p. 22.
(٤) ابن العديم: المصدر السابق - جـ ٢ - ص ٢٣١ - ٢٣٢.

كسباً للوقت لمعاقبة أهل حمص على ما اقترفوه في حق الرهائن، فقد جمع الصليبيون قواتهم بقيادة جوسلين وساروا إلى رفينة القريبة من حمص ومنها إلى حمص نفسها وعاثوا في المنطقة فساداً، فاستنجد شمس الخواص صاحب رفينة بالبرسقي الذي أتى لنجدته، ولما أحس جوسلين بقرب قوات البرسقي وأنَّ بلدوين قد رحل عنه إلى القدس، راسل جوسلين البرسقي على أن تكون الضياع ما بين عزاز وحلب مناصفة وأن تكون الحرب بينهما على غير ذلك، فاستقر الأمر بينهما في أواخر ربيع الآخر ٥٢٠ هـ / ٢١ ـ ٢٤ مايو ١١٢٦ م[١].

وهكذا انتهت الأحداث الخاصة بأسر الملك بلدوين الذي دام سنة وأربعة أشهر (رجب ٥١٦ ـ جمادي الآخرة ٥١٧ هـ / أبريل ١١٢٣ ـ أغسطس ١١٢٤)، وأسر جوسلين الذي وقع في رجب ٥١٦ هـ / سبتمبر ١١٢٢ م وانتهى بهروبه في جمادي الآخرة ٥١٧ هـ / أغسطس ١١٢٣ م، أي حوالي سنة، وما ترتب على ذلك من أحداث استمرت حتى عام ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م. ومن الواضح أنَّ بلك وتمرتاش والبرسقي ودبيس بن صدقة قد لعبوا دوراً كبيراً في هذه الأحداث، واتَّضح لنا خلالها أنَّ المسلمين عاملوا أسراهم معاملة طيبة حتى عندما ثاروا وتمردوا في قلعة خرتبرت مقر أسرهم، وأنَّ المسلمين كانوا أوفياء بعهدهم طوال هذه الأحداث، وأنَّ الصليبيين خنثوا بوعدهم ولم ينفذوا الشروط الخاصة بإطلاق

---

(١) ابن العديم: الموضع نفسه.

سراح بلدوين خاصة تسليم بعض قلاع أنطاكية لاعتراض حكام أنطاكية على ذلك. كما يتضح أيضاً أنَّ بلدوين لم تكن له كلمة عليا على هؤلاء الحكام، ولكن الأحداث أثبتت أنَّ الصليبيين أدوا الفدية وهي مائة ألف دينار كاملة على دفعتين، وأنَّهم أجبروا على تسليم بعض القلاع أيضاً إلى البرسقي عدا بعض القلاع مثل قلعة عزاز وقدموا بديلاً عنها.

المبحث الثاني

بونز أمير طرابلس، وجيرالد أسقف طرابلس، وريموند الثاني أمير طرابلس

والمبحث الثاني في هذا البحث يتناول ثلاث شخصيات، الأولى هي شخصية بونز Pons أمير طرابلس ١١١٣ ـ ١١٣٧ م / ٥٠٧ ـ ٥٣١ هـ، الذي أوردت بعض المصادر الصليبية خبراً عن أسره، والثانية هي شخصية جيرالد Gerald أسقف طرابلس، والثالثة هي شخصية ريموند الثاني Raymond II أمير طرابلس (١١٣٧ ـ ١١٥٢ م / ٥٣١ ـ ٥٤٧ هـ.

وفيما يتعلّق بالأمير بونز يروي وليم الصوري أنَّ بزواج قائد جيش دمشق غزا أراضي إمارة طرابلس، وقد سار إليه الكونت بونز ومعه كل قواته، وقد تقابل المسلمون والصليبيون عند القلعة المعروفة باسم جبل الحجاج Mount Of The Pilgrims التي تعرف أيضاً باسم قلعة صنجيل حيث دارت معركة رهيبة عند هذا المكان وهزم الصليبيون ولاذوا بالفرار وسقط بونز أسيراً وقد غدر به سكان

جبل لبنان وقتل. ويضيف وليم الصوري أيضاً أنَّ جيرالد أسقف طرابلس كان من بين الأسرى، وقد ظلّ في الأسر لبعض الوقت دون أن يتعرف المسلمون عليه، وقد عاد إلى بلاده عندما تمَّ تبادل بعض الأسرى المسلمين بالصليبيين[1].

وتتبع الباحث هذه الأحداث في المصادر العربية، فقد ذكر ابن القلانسي أنَّه في رجب ٥٣١ هـ / (٢٥ مارس - ٢٣ إبريل ١١٣٧ م) نهض الأمير بزواج في فريق وافر من العسكر الدمشقي من التركمان إلى ناحية طرابلس فظهر إليه قومصها في عسكره والتقيا فكسره بزواج وقتل منهم جماعة وافرة وملك حصن وادي ابن الأحمر وغيره. وذكر ابن القلانسي هذه الأحداث مرة أخرى وقال أنَّ الأمير بزواج نهض في العسكر ومن حشده معه من التركمان إلى ناحية طرابلس في الرابع من شهر رجب (الثامن والعشرين من مارس) فظهر إليه صاحبها في خيله من الإفرنج فكمن لهم في عدَّة مواضع، فلما وصلت القوات الصليبية إلى الموضع المعروف بالكورة ظهرت عليهم الكمناء فهزموهم ووقع السيف في أكثرهم ولم يفلت منهم إلَّا اليسير، وهجم على الحصن الذي هناك فنهبه وقتل من فيه من المقدمين والأتباع وأسر من بذل في نفسه المال الكثير وحصل له ولعسكره القيمة الكبيرة[2]. ويلاحظ أنَّ ابن القلانسي لم يتعرض لأسر بونز أو مصرعه أو أسر جيرالد في المرتين.

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 82.

(٢) ابن القلانسي: المصدر السابق - ص ٢٥٨ - ٢٦٢.

وأورد ابن الأثير أنَّه في رجب ٥٣١ هـ سار عسكر دمشق مع مقدمهم الأمير بزواش (بزواج) إلى طرابلس الشام، فاجتمع معه الغزاة والمتطوعة والتركمان أيضاً خلق كثير، فلما سمع القمص صاحبها بقربهم من ولايته سار إليهم في جموعه وحشوده فقاتلهم وانهزم الصليبيون وعادوا إلى طرابلس على صورة سيئة وقد قتل كثير من فرسانهم وشجعاتهم، فنهب المسلمون من أعمالهم الكثير وحصروا حصن وادي ابن الأحمر Chastel - Rouge فملكوه عنوة ونهبوا ما فيه، وقتلوا المقاتلة، وسبوا الحريم والذرية، وأسروا الرجال فاشتروا أنفسهم بمال جليل وعادوا إلى دمشق سالمين[1]. والملاحظ أنَّ ابن الأثير لم يضف إلينا جديداً فهو لم يتعرض إلى أسر بونز أو مصرعه أو أسر جيرالد.

ومن المصادر الإسلامية يوجد نص لرسالة بعث بها الخليفة الفاطمي في مصر الحافظ لدين الله (٥٢٤ ـ ٥٤٤ هـ / ١١٣٠ ـ ١١٤٩ م) إلى شمس الدولة بن بوري ببعلبك. ويمكن وضع تاريخ هذه الرسالة بين عامي ٥٣١ ـ ٥٣٣ هـ لأنَّ شمس الدولة تولى أمر بعلبك من ٥٢٦ ـ ٥٣٣ هـ، وقد ورد في هذه الرسالة وهي رد على خطاب ورد من شمس الدولة أنَّه حسن لفخر الملك زواج (بزواج) وروده على الخليفة بالديار المصرية، ويذكر نصرته على الفرنج بطرابلس، وقتله القمص ملكها. وورد أيضاً في موضع آخر من الرسالة، وأمَّا توجهه (بزواج) إلى طرابلس وظفره بقومصها وقتله

(١) ابن الأثير: المصدر السابق ـ جـ ١١ ـ ص ٥٠.

إياه مع من بها، وعظيم أمره فيها، فالله تعالى يعز الإسلام وينشر لواءه[1].

والواضح أنَّ هذا النص يعتبر أقدم نصاً ورد لنا عن هذه الأحداث لأن وليم الصوري كان في حوالي العاشرة من عمره في هذه المرحلة، والواضح أيضاً أنَّ أحداث الأسر لم ترد بهذا النص وأنَّه أورد قتل بزواج للأمير بونز، فهل وقع في أسره ثمَّ قتله، أمَّ أنَّه قتل خلال المعركة؟ ولمزيد من الدراسة تتبع الباحث المصادر الإسلامية وعثر على بعض معلومات عند المؤرخ ابن الفرات، وقد ذكر أنَّه في يوم الأحد لأربع خلون من شهر رجب الفرد من شهور هذه السنة (٥٣١ هـ) قصد الأمير بزواج أتابك عسكر الملك شهاب الدين صاحب دمشق (٥٢٩ ـ ٥٣٣ هـ / ١١٣٥ ـ ١١٣٩ م) في عسكر دمشق إلى ناحية طرابلس وشن عليها الغارة فخرج إليه قومصها والتقيا فكانت الكرة لبزواج فكسر صاحب طرابلس وقتل وجوه أبطاله وغنم غنيمة عظيمة، وأضاف قائلاً قال الحافظ بن الجوزي وقتل نبران ابن صنجيل الفرنجي ملك طرابلس وقتل أكثر أصحابه وأسر بطرس الأعور[2]. ولم يضف هذا النص كثيراً ولكن عبارة وأسر بطرس الأعور تلفت النظر لأمرين: الأول أنَّ الحديث عن أسر شخصية صغيرة مثل بطرس الأعور ينفي وقوع بونز في

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ـ القاهرة ١٣٣٣ هـ ١٩١٥ م ـ جـ ٦ ـ ص ٤٤٩، ٤٥١.

(٢) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك (مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ٣١٩٧ تاريخ) المجلد الثالث ـ لوحة رقم ٨٩.

الأسر. وإذا كان بونز قد أسر وهو صاحب طرابلس أو ملك طرابلس كما ورد النص لكان بالأحرى الإشارة إليه مثلما أشار المؤرخ إلى أسر بطرس الأعور. والأمر الثاني أنَّ بطرس الأعور هذا لعلَّه يكون جيرالد أسقف طرابلس الذي أشار إليه المؤرخ وليم الصوري أنَّه تمَّ إطلاق سراحه دون التعرف عليه. وقد يكون صواباً أنَّه أطلق سراحه قبل أن يتعرفوا عليه، ولكن شخصيته قد عرفت بعد إطلاق السراح فسجلت المصادر أحداث أسره.

وعلى ضوء ما تقدم يستطيع الباحث أن يقول أن بونز أمير طرابلس لم يأسر أو يسلم حياً إلى بزواج. والأرجح أنَّه قتل خلال هذه المعارك أو أنَّ فئة من أهالي المنطقة هي التي قتلته ولكنه لم يقع أسير حرب ثمَّ قتله بزواج.

أمَّا فيما يتعلق بأسر الأمير ريموند الثاني الذي خلف والده في حكم طرابلس، فقد روى وليم الصوري أنَّ هذه الأحداث ترجع إلى أنَّ الإمبراطور البيزنطي يوحنا الثاني John II (١١١٨ - ١١٤٣ م / ٥١١ - ٥٣٧ هـ) كان يحاصر مدينة أنطاكية، ولما كان عماد الدين زنكي أتابك الموصل (٥٢١ - ٥٤١ هـ / ١١٢٧ - ١١٤٦ م) كان يعلم بمقتل بونز ومقتل عدد كبير من قواته وبذلك أصبحت بلاده بدون قوات تحميها، لذلك قام زنكي بإلقاء الحصار على قلعة بعرين أو بارين[1]. وفي هذه المعلومة خبران الأول يتعلَّق بتاريخ الأحداث الذي أورده المؤرخ مقارناً لحصار يوحنا لمدينة

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, PP. 84 - 5.

أنطاكية وهي معلومة غير صحيحة لأنَّ وجود الإمبراطور البيزنطي عند أنطاكية يرجع إلى التاسع والعشرين من أغسطس ١١٣٧ م / الثامن من ذي الحجة ٥٣١ هـ، وهو تاريخ لاحق لتوجه زنكي إلى قلعة بعرين، أمَّا الخبر الثاني ويتعلَّق بأسباب قيام زنكي بحصار قلعة بعرين، ففيه جانب من الصواب.

وقد أورد ابن القلانسي أنَّ عماد الدين زنكي توجه من الموصل إلى حمص وحاول الاستيلاء عليها، ولكنه فشل فرحل عنها في العشرين من شوال ٥٣١ هـ / الحادي عشر من يوليو ١١٣٧ م، ونـزل على الحصن المعـروف باسم بعـرين لينتزعـه من أيـدي الصليبيين[1]. ورغم أنَّ ابن القلانسي لم يقدم لنا سبباً واضحاً لذلك، إلاَّ أننا نأخذ من هذه المعلومة أنَّ تاريخ الحصار كان سابقاً لتاريخ حصار الإمبراطور لمدينة أنطاكية.

ويذكر ابن الأثير أنَّه في شعبان عام ٥٣١ هـ (٢٤ إبريل - ٢٢ مايو ١٣٧ م) سار أتابك زنكي إلى حمص وكانت تابعة للأمير معن الدين أنر وحاول الاستيلاء عليها ولكن أنر دافع عنها فرحل زنكي عن المدينة في العشرين من شوال ٥٣١ هـ (الحادي عشر من يوليو ١١٣٧ م) إلى حصن بعرين[2]. ويتفق ابن الأثير مع ابن القلانسي ولعلَّه نقل عنه، في مجمل المادة التاريخية وفي تاريخ الرحيل عن حمص.

---

(١) ابن القلانسي: المصدر السابق - ص ٢٥٨ - ٢٥٩.
(٢) ابن الأثير: المصدر السابق - جـ ١١ - ص ٥٣.

وسجل ابن العديم أنَّ زنكي توجه من الموصل إلى حلب حيث انضمت إليه بعض القوات ثمَّ رحل إلى حمص في شوال وكان بها أنر من قبل صاحب دمشق فحصرها مدة، فخرج الفرنج نجدة لحمص وغيلة لزنكي، فرحل زنكي عن حمص ولقي الفرنج عند قلعة بعرين[1].

ويطابق التاريخ ما ورد في المصادر العربية الأخرى، أما ما ورد به عن قدوم الصليبيين نجدة لمدينة حمص فهي معلومة تستحق الوقوف عندها. فمدينة حمص كانت تابعة لدمشق في هذه المرحلة، وقوات دمشق هي التي أغارت على طرابلس بالأمس وقتلت أميرها، لذلك يستبعد الباحث أنَّ القوات الصليبية قد أتت لنجدة حمص، أما تعبير غيلة لزنكي فهو أمر مقبول. ولذلك يمكن القول أن الصليبيين أتو غيلة لزنكي حتى لا يستولي على حمص فيقوي بها ملكه على الصليبيين.

ونستنتج من ذلك كله أنَّ حصار بعرين كان سابقاً على حصار الإمبراطور يوحنا لمدينة أنطاكية، وأنَّ الهزيمة التي حلَّت بقوات طرابلس ومصرع أميرها بونز كان عاملاً مشجعاً على مهاجمة زنكي لأراضي طرابلس. يضاف إلى ذلك أنَّ أهل حصن بعرين «خربوا ما بين حماة وحلب من البلاد ونهبوا وتقطعت السبل»[2]. وأنَّ هجوم زنكي كان انتقاماً منهم.

---

(١) ابن العديم: المصدر السابق - جـ ٢ - ص ٢٦١.

(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر - القاهرة ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٣ م - ص ٦١.

وعلى أية حال عندما أحس عماد الدين زنكي بتقدم القوات الصليبية من طرابلس وعلى رأسها ريموند الثاني لم يشأ أن يقاتل الصليبيين عند حمص خشية اتحاد قوات حمص وقوات طرابلس أو حتى لا تكون قوات حمص شوكة في ظهره لذلك نقل ساحة المعركة إلى أقصى قلعة في شمال شرقي طرابلس وهي قلعة بعرين التي لا تبعد عن حمص سوى خمسة وثلاثين كيلومتر إلى الشمال الغربي.

كان لقاء عماد الدين زنكي وقوات طرابلس بقيادة ريموند الثاني عند قلعة بعرين التي تقع على مرتفعات مدينة رافينة حيث وصل زنكي قبل ريموند وحاصر القلعة. ولما علم ريموند باتجاه القوات الإسلامية إلى هذه المنطقة بأمل سيطرة عماد الدين على قلعة بعرين[1]، أدرك أنَّ القوات التي معه لا تكفي لمواجهة قوات زنكي، وأنَّ موقفه أصبح سيئاً للغاية، بعث برسالة عاجلة إلى فولك أف أنجو Fulk of Anjou ملك مملكة بيت المقدس (١١٣١ - ١١٤٤ م / ٥٢٦ - ٥٣٨ هـ) يطالبه بالحضور فوراً لمساعدته فاستدعى الملك القوات الصليبية واتَّجه إلى الشمال بأسرع ما يمكن لمساعدة ريموند، وتوحدت قوات مملكة بيت المقدس وقوات طرابلس تحت قيادة الملك فولك والأمير ريموند[2].

علم زنكي بتقدم هذه القوات فتراجع قليلاً وترك حصار القلعة لبعض الوقت، ولم يعلم الصليبيون بذلك، وكان كل ما

(١) ابن القلانسي: المصدر السابق - ص ٢٥٩.

(٢) William of Tyre, op. cit., II, p. 85.

يعنيهم هو الوصول بأسرع وقت إلى قلعة بعرين التي بدأت تعاني من شدَّة الحصار وقلَّة الأقوات، وفي هذه العجالة ترك المرشدون الذين كانوا يتولون إرشاد الجيش الصليبي - الطريق السهل سواء أكان ذلك بطريق العمد أو الخطأ - واتبعوا طريقاً جبلياً صعباً حتى دخل الصليبيون منطقة ضيِّقة عديمة الممرات وغير مناسبة لمعركة وباتوا في مأزق. وقد استغل عماد الدين زنكي هذا الموقف وهو الرجل المحنك ذو الخبرة الطويلة في الحروب، فبادر بالسيطرة على الموقف وأعد رجاله وكانوا بالآلاف ورفع معنوياتهم بخطبة ألقاها عليهم، وطلب منهم أن يتخذوه قدوة، وهنا انقضت القوات الإسلامية على القوات الصليبية(1)، وهي في هذا المأزق. فاختلط الرئيس بالمرؤوس وصبرا الفريقان صبراً لم يسمع بمثله، وانتهت المعركة بهزيمة الصليبيين هزيمة منكرة وأخذتهم سيوف المسلمين من كل ناحية. وعندما أدرك الصليبيون أنَّهم هالكون لا محالة بعد ما قتل منهم أكثر من ألفين انسحبوا إلى حصن بعرين القريب منهم(2)، وكان من أمنع معاقل الصليبيين وأحصنها(3)، بعد ما تركوا أسلحتهم(4)، بالإضافة إلى الأمتعة والخيول ودواب الحمل وما عليها من مؤن(5).

---

(1) William of Tyre, op. cit., II, p. 86.

(2) ابن العديم: المصدر السابق - جـ ٢ - ص ٢٦١ - ٢٦٢.

(3) ابن الأثير: الكامل - جـ ١١ - ص ٥١.

(4) ابن الأثير: التاريخ الباهر - ص ٦٠.

(5) William of Tyre, op. cit., II, p.86.

نتج عن هذه المعركة سقوط ريموند كونت طرابلس وبعض الفرسان أسرى في أيدي قوات عماد الدين زنكي، وكان من بين القتلى جودفري شاربولو Godfry Charpulu وهو أخ لجوسلين الأول كونت الرها، وكان لجوء الملك فولك بعد ذلك إلى قلعة بعرين أنَّه أدرك أن لا أمل له في المقاومة[1].

لم يدع زنكي الفرصة تفلت منه، فقد لاحق القوات الصليبية إلى حصن بعرين، ولم يكن لدى الصليبيين بالقلعة غير أسلحتهم الشخصية، كما لم يكن لديهم ما يكفيهم من الطعام، لذلك استقر رأي الصليبيين على طلب النجدات من أنطاكية والرها وبيت المقدس. وتمَّ إرسال الرسائل إليهم بهذا المعنى. وقد لبَّت الإدارات الصليبية النداء، وجمع ريموند أف بواتيه Raymond Of Poitiers أمير أنطاكية (١١٣٦ ـ ١١٤٩ م ٥٣٠ ـ ٥٤٤ هـ) قواته، كما أنَّ جوسلين أمير الرها استعد بقواته أيضاً، كما أنَّ وليم الأول William I بطريق القدس (١١٣٠ ـ ١١٤٥ م / ٥٢٤ ـ ٥٤٠ هـ) أعد العدَّة لنجدة الملك، وهكذا سارت الاستعدادات على قدم وساق لنجدة القوات الصليبية المحاصرة في قلعة بعرين[2].

واصل زنكي هجماته على القلعة، واهتزَّت أسوارها تحت ضربات المجانيق العشر التي ظلَّت تضرب القلعة ليلاً ونهاراً[3]،

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 87.

(٢) Ibid., p. 88.

(٣) ابن العديم: المصدر السابق ـ جـ ٢ ـ ص ٢٦٢.

كما شدَّد الحصار على القلعة ومنع عنها كل شيء، حتى أصبح من بالقلعة لا يعلم شيئاً عن أخبار بلاده لشدَّة السيطرة على الطرق[1]. وتساقطت أحجار المجانيق وسط القلعة فحطمت ما صادفته وأنزلت الفزع بالصليبيين لأنَّه لم يعد بالقلعة موقع آمن وأصبح الجميع في خطر.

وحاول الملك فولك تنظيم قواته للدفاع عن القلعة ولكن هذه المحاولات لم تؤد إلى سيطرة الصليبيين على الموقف لعجز القوات الصليبية يوماً بعد آخر عن الدفاع عن القلعة بسبب موت البعض ونقص الطعام حتى أكل الصليبيون الدواب، وسار الموقف داخل القلعة من سيء إلى أسوأ، ومرَّت الساعة وكأنَّها عام[2].

استغلَّ عماد الدين هذا الموقف وسير جانباً من قواته إلى الشمال واستولت على المعرة وكفر طاب وبعض قلاع أخرى وأحسن إلى أهلها ورد عليهم ممتلكاتهم[3]. كما أنَّ قوات دمشق تحت قيادة بزواج استغلت هذا الموقف أيضاً فأغارت على نابلس، وكانت مدينة غير حصينة فلم يكن لها أسوار أو خندق، ونجحت قوات دمشق في الوصول إلى قلعة المدينة وعادت محملة بالأسرى الأسلاب وكل نفائس المدينة[4].

---

(١) ابن الأثير: الكامل - جـ ١١ - ص ٥١.

(٢) William of Tyre, op. cit., II, p. 90.

(٣) ابن الأثير: المصدر السابق - جـ ١١ - ص ٥٢.

(٤) William of Tyre, op. cit., II, p. 89.

ولمّا أحسَّ الصليبيون المحاصرون في حصن بعـرين أنّهم هالكون لا محالة لعدم وصول النجدات إليهم وانقطاع أخبارها، «راسلو عماد الدين زنكي في طلب الأمان، وسألوه في حقن دمائهم ليستسلموا، وهو لا يصغي إلى مقالتهم، ولا يسمع رسالتهم، وقد قوي عزمه على أخذ قلعة بعرين قهراً ليملك بها سائر بلادهم ويريح المسلمين بعد هذه الواقعة من قراعهم وجلادهم»[1].

وظلَّ عماد الدين محاصراً للقلعة رافضاً عروض الصليبيين إلى أن بلغه قدوم القوات الصليبية لنجدة الملك وفك أسر الأمير ريموند. وهنا وافق عماد الدين على مبدأ الصلح الذي عرضه الصليبيون، وقد أبلغ رسل عماد الدين زنكي الملك فولك أنَّ القلعة أصبحت نصف خربة، وأنّها على وشك الانهيار، وأنَّ الجوع قد أجهد الصليبيين ولم يعد لديهم القدرة على المقاومة وأنَّ القوات الإسلامية لا زالت قوية على حالها. وبعد هذه المقدمة عرض الرسل على الملك الصليبي تسليم قلعة بعرين[2]، ودفع مبلغ خمسين ألف دينار[3] مقابل فك الحصار عن القلعة وعودة الصليبيين إلى بلادهم آمنين[4].

كان الصليبيون يجهلون أنَّ النجدات أصبحت على وشك

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر ـ ص ٦١.

(٢) William of Tyre, op. cit., II, p. 91.

(٣) ابن القلانسي: المصدر السابق ـ ص ٢٥٠.

(٤) William of Tyre, op. cit., II, p. 91.

الوصول إلى القلعة، ونظراً لما عاناه المحاصرون من الجوع وقلّة الراحة وكثرة الجرحى وأنّهم أصبحوا في حالة لا تمكنهم من مواصلة الحرب، فقد استقبلوا شروط عماد الدين بالترحاب وتعجبوا أن تصدر مثل هذه الشروط الإنسانية من عماد الدين الذي كان في نظرهم رجلاً قاسياً(١).

تمّ الاتفاق بين عماد الدين زنكي والملك فولك على هذه الشروط في العشر الأواخر من ذي القعدة ٥٣١ هـ / العاشر- التاسع عشر من أغسطس ١١٣٧ م(٢)، وأطلق سراح ريموند كونت طرابلس ومعه عدد كبير من الأسرى ونقلوا إلى عرقة، كما خرج الملك فولك ورجاله من القلعة وعاملهم عماد الدين معاملة حسنة، وسلمت القلعة للمسلمين وابتهج الملك لخروجه من هذا المأزق، واتّجه إلى الحقول القريبة من عرقة حيث التقى مع الأمير ريموند بعد إطلاق سراحه، وقد شكر ريموند الملك والقوات الصليبية لما بذلوه من أجله(٣).

وبعدما سار الصليبيون يوماً عن حصن بعرين، لقيهم الصليبيون الذين كانوا قادمين لنجدتهم وعلموا بتسليم بعرين، فألقوا باللوم على الصليبيين الذي كانوا محاصرين داخل القلعة لعدم ثباتهم داخل القلعة يوماً آخر، ولكن الصليبيين الذين كانوا

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 91.

(٢) ابن العديم: المصدر السابق - جـ ٢ - ص ٢٦٢.

(٣) William of Tyre, op. cit., II, p p. 91 - 2.

محاصرين أقسموا لهم أنّه لم يكن لديهم علم بوصول النجدات واعتقدوا أنّ القادة الصليبيين أهملوا أمرهم[1].

ونستنتج من ذلك أنّ عماد الدين عجّل بضربة قاسمة لإمارة طرابلس عقيب مصرع أميرها بونز، وأنّه نجح في نقل المعركة إلى أطراف الإمارة، وتمكن من هزيمة الصليبيين هزيمة كبيرة وقتل منهم العديد وأسر ريموند الثاني وأجبر الصليبيين على اللجوء إلى حصن بعرين وحصارهم بداخله وظلّ يقاتلهم حتى أجبرهم على طلب الصلح ثمّ ظلّ مشدداً للحصار حتى تمكن من فرض شروطه للإفراج عن الأمير المأسور بعد دفع الفدية وتسليم قلعة بعرين، ثمّ عامل عماد الدين زنكي الملك فولك ورجاله معاملة حسنة شهد بها المؤرخ الصليبي وليم الصوري.

وفي ختام هذين البحثين نصل إلى نتائج جديدة في تاريخ الحروب الصليبية، منها: أنّه خلال الفترة موضوع البحث وقعت ثمان شخصيات في أسر المسلمين منهم بلدوين أف بورج ملك مملكة بيت المقدس الذي أسر مرتين إحداهما وهو أمير الرها والأخرى وهو ملك، كما أسر جوسلين الأول مرتين أولهما وهو صاحب تل باشر والثانية وهو أمير الرها، كما أسر بوهمند أمير أنطاكية، وريموند الثاني وهو أمير طرابلس وبعض الشخصيات الأخرى. ومعنى ذلك أنّ ما من إمارة صليبية إلاّ وقد وقع منها أحد أمرائها أسيراً في يد المسلمين.

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر ـ ص ٦١

وفي مقابل ذلك لا نجد قائداً أو حاكماً مسلماً قد وقع في أسر المسلمين، فهل معنى ذلك أنَّ القادة المسلمين كانوا بعيدين عن أرض المعارك، كلا، إنَّ البحث أثبت أنَّ القادة المسلمين كانوا في وسط المعارك وعلى رأس جنودهم. فما هي أسباب ذلك؟ واقع الحال هناك عدَّة أسباب يمكن التركيز عليها في هذا الموضع. منها: أنَّ القادة العرب والقوات الإسلامية كانوا على معرفة تامة بالأراضي التي دارت عليها المعارك التي انتهت بأسر القادة الصليبيين، وهناك نقطة أخرى في غاية الأهمية وهي أنَّ القادة المسلمين كانوا على معرفة تامة بتحركات القوات الصليبية فكمنت لها أو هاجمتها في الوقت المناسب. وهذا يدل على القدرة العالية التي تمتَّعت بها أجهزة الاستطلاع عن المسلمين.

وهناك نتيجة تتعلق برجال الدين، فالملاحظ أنَّ رجال الدين كانوا حريصين على مصاحبة القوات الصليبية في معظم المعارك، والواقع أنَّ هذه سمة عامة في كافة الحروب الصليبية وليس في المعارك التي أشرنا إليها في هذا البحث فقط، ولكن الجديد هنا هو وضع بعض الإمارات التي أسر حاكمها تحت وصاية رجال الدين مثلما حدث في الرها عندما عيَّن الراهب جودفري وصياً على إمارة الرها عندما أسر جوسلين. ونقطة أخرى تتعلَّق ببعض رجال الدين وهو قيامهم بجهود كبيرة في جمع فدية الأمير المأسور مثلما حدث مع برنارد أف فالس بطريق أنطاكية الذي قام بجمع الفدية المطلوبة لإطلاق سراح بوهمند أمير أنطاكية. ويتضح أيضاً أنَّ برنارد قام بهذا العمل من أجل إطلاق سراح أميره بوهمند ولا يجوز اتخاذ ذلك

قاعدة عامة لأنَّه من الواضح تعصب كل إمارة لأراضيها حتى لو عرَّض ذلك حياة رهائن الأسير للخطر مثلما حدث مع البطريق برنارد أف فالس عندما كان وصياً على إمارة أنطاكية ورفض التنازل عن بعض القلاع طبقاً للشروط التي قبلها بلدوين أف بورج وهو ملك مملكة بيت المقدس من أجل إطلاق سراحه.

وهناك نتيجة تتعلق بالأمراء الصليبيين أنفسهم، فقد كان بعضهم يعين وصياً على إمارة آخر عندما يقع في الأسر، وبدلاً من العمل على فك أسره نراه يتراخى أو يتهاون أو لا يتعاون من أجل إطلاق سراح الأمير المأسور. ومعنى ذلك أنَّ الأمير الوصي كان يرى في عودة الأمير نهاية لسلطانه على الإمارة التي تحت وصايته، مثلما فعل تانكرد مع بلدوين أف بورج عندما وقع في الأسر وهو أمير على الرها، ووصل الأمر إلى الصدام المسلح بين إمارة الرها وإمارة أنطاكية.

ومن نتائج الأسر أيضاً محاولة القادة المسلمين استغلال الأمير المأسور كوسيلة للضغط لإجبار الصليبيين على تسليم بعض المدن أو القلاع مثلما حدث مع الأمير بلك الذي حاول أن يستغل جوسلين بعد أسره في إجبار مدينة الرها على الاستسلام ولكن دون جدوى، وعندما طلب بلك أيضاً من بلدوين أف بورج بعد أسره إجبار مدينة كركر على التسليم.

وهنـاك نتيجـة أخـرى تتعلَّق بعمليـة خـداع المسلمـين للصليبيين، وهو أنَّه في أعقاب أحداث أسر أحد القادة الصليبيين

وما يصاحب ذلك من وقوع عدد كبير من الصليبيين في الأسر، وما يسود الجيش الصليبي من فوضى وما يقع في الأراضي الصليبية من الخوف والاضطراب، نلاحظ أنَّ القادة المسلمين قد استغلوا ملابس الأسرى الصليبيين وألبسوها لجنودهم ودخلوا بهم الأماكن الصليبية على أنَّهم جنود صليبيون واستولوا على هذه الأماكن.

ومن النتائج أيضاً العمليات الانتقامية التي قام بها الصليبيون عندما كانوا يعملون بأسر أحد قادتهم ومن ذلك عندما قامت قوات مملكة بيت المقدس بمهاجمة الأراضي الإسلامية عبر الأردن عندما علمت بأسر بوهمند ومرة أخرى عندما علمت بأسر ملكها بلدوين أف بورج.

ومن نتائج هذا البحث التحالف الذي وقع بين بعض المسلمين والصليبيين من جانب ضدَّ بعض المسلمين والصليبيين أو البيزنطيين من جانب آخر، ومن ذلك عندما تضمنت شروط الإفراج عن بوهمند تحالف الأمير غازي مع بوهمند ضدَّ السلطان قلج أرسلان والإمبراطور البيزنطي الكسيوس. ومن ذلك أيضاً عندما تضمنت شروط إطلاق سراح بلدوين أف بورج أمير الرها مع تمرتاش التحالف ضدَّ دبيس بن صدقة، وما أعقب ذلك من أحداث أدَّت إلى تحالف بلدوين مع دبيس بن صدقة ضدَّ تمرتاش.

ونتيجة أخرى تتعلَّق بالالتزام شبه التام بين المأسور وآسره حول تنفيذ شروط إطلاق السراح، فقد اتَّضح من هذا البحث التزام الجانبين بتنفيذ شروط الاتفاق من أجل إطلاق سراح القائد

الصليبي، ولم يشذ عن ذلك إلاَّ الملك بلدوين أف بورج عندما ارتبط بتسليم بعض قلاع أنطاكية واعتراض الإدارة الأنطاكية على ذلك.

وفي ختام هذه النتائج نتكلم عن معاملة المسلمين للأسرى الصليبيين والعكس. فإذا استثنيا روبرت الأبـرص الذي قتله طغتكين وهو تحت تأثير الخمر، نجد حسن معاملة الأسرى من قبل الصليبيين والمسلمين، ومن ذلك أنَّ بلدوين أف بورج قد أعاد بعض الأسرى المسلمين وقد كساهم بملابس جديدة. وأنَّ الأمير بلك قد عامل بلدوين أف بورج ومن معه من الأسرى معاملة طيبة حتى بعد ما تمردوا في قلعة خرتبرت، كما أن تمرتاش عامل بلدوين عندما أسر للمرة الثانية معاملة طيبة ودعاه إلى مائدته وردَّ إليه حصانه الذي كان يركبه يوم أسره. وأنَّ عماد الدين زنكي قد عامل ريموند الثاني معاملة طيبة وأنَّ شروطه من أجل الإفراج عنه وجلاء الصليبيين عن قلعة بعرين كانت شروطاً إنسانية تعجب لها المؤرخ وليم الصوري.

الفهـــرس

عظيم شكري وتقديري للمسؤولين والعاملين
بدار النهضة العربية